العز بن عبد السلام بين مقاصد الشريعة ودوره فى عصره

عبد الله بن خالد آل خليفة
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مملكة البحرين

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد

فيطيب لنا كل عام أن نلتقى على أرض الكنانة مصر، أرض العلم والعلماء، وفى كل عام يكون هذا الالتقاء ليحدث فيه انتقاء مواضيع تعم الأمة الإسلامية والعالم كله، وتلقى الأبحاث، ويتحاور العلماء، عسى أن يكون من وراء ذلك هداية للحيارى الذين ينتظرون ما يبين لهم أمور دينهم.

ولعل اختيار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية عنوان المؤتمر الثانى والعشرين بعنوان "مقاصد الشريعة وقضايا العصر " ما يدل على وعى بحاجات الأمة إلى هذه البحوث المتخصصة التى تعالج من ضيقوا على الناس دينهم أو فسروه حرفيا بما فوت عليهم مراد الله منهم، فانتشرت العصبية والحرفية بما أضر كثيرا بتعايشنا الآمن على أرضنا الإسلامية.

نحيى أهل مصر ووزارة الأوقاف وندعو الله تعالى أن يلهمنا جميعا الهدى والرشاد إلى خير العباد فى هذه الدنيا ويوم المعاد.

مقدمة

الحمد لله الذى خلق كل شيء بحكمته، وأنزل الشريعة برحمته، والصلاة والسلام على الرحمة للعالمين والهُدى للخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد...

فقد عشت مع مقاصد الشريعة منذ نعومة أظفارى أنظر فى كل شيء باحثًا عن المقاصد

والغايات، ولا أتوقف عند الظواهر والحرفيات، وأقف كثيرًا عند القواعد والمنهجيات، أكثر مما تشدنى الأحكام والتفصيليات، وعندما أكرمنى الله عز وجل برؤية هذا الكتاب "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال" أثار فى الكثير من الكوامن، وحرك عقلى ووجدانى إلى جوهر شريعتنا الغراء فى مقاصدها العليا، وغاياتها الكبرى، وربطها بحياة الإنسان يجعلنى بحق موقنًا أن خلاص الخلق من ذل الاستعباد، والظلم والفساد، مرهون بعودة العباد إلى عبادة رب العباد، ولعل الإمام الفخر الرازى قد أجاد عندما عرَّف العبادة بقوله هى: "غاية الخضوع لأمر الله، وغاية الشفقة على خلق الله" فجمع بين علائق السماء ورقائق الأرض، فى منظومة لو تصالح الخلق عليها إما إيمانًا بها أو إقرارًا بنفعها، والتعايش حولها لكانت أقرب نقطة بين طرفين متباعدين من صراع الحضارات، والدول والجماعات، والأحزاب والأزواج والزوجات، مما يحوِّل عالم الإنسان اليوم من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الظلم، ومن الخير إلى الشر، ومن الحب إلى الحقد، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الرضا إلى الغضب، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الفرح إلى الترح، والأصل فى الشريعة أن تسير الأمور عكس ذلك إلى الرحمة والعدل والخير والحب والأمن والرضا والغنى والفرح لينال سعادة الدارين.

وكنت أظن فى بداية مشوارى العلمى أن علم المقاصد لم يكتبَ فيه إلا قلة تصل إلى الندرة من العلماء والفقهاء القدامى والمعاصرين لكنى عندما دققت البحث وجدت أنه لا يكاد يخلو أحد من فقهائنا وعلمائنا من فقه المقاصد والتعليل – على تفاوت بينهم – إلا ما ورد عن ابن حزم ومدرسته الظاهرية من رفض القياس والتعليل، لكن الجمهور يقولون بالتعليل والمقاصد، وإن كان بعضهم كتب مشيرًا أو مؤصلاً أو مُنظِّرًا لكن أغلبهم فى التطبيق العملى عند الإفتاء والاجتهاد يأخذ بالمصالح والمقاصد؛ وإلا ما ظهر القياس وهو جوهر التعليل المحدد، والمصالح وهو التعليل الموسع والاستحسان وسد الذرائع وهى فى مجملها تدور حول فقه المقاصد.

ولذا يبدو لى أن من الأهمية إعادة دراسة من كَتَبَ فى فقه المقاصد قليلاً أو كثيرًا، مشيرًا أو مُنظِّرًا، مثل ما كتبه أبو منصور الماتريدى (٢٣٣هـ) فى مأخذ الشرائع، أو ما كتبه القفال الكبير أبو بكر (٣٦٥هـ) فى محاسن الشريعة، وما كتبه أبو بكر الأبهرى المالكى (٣٧٥هـ) فى مسألة الجواب والدلائل والعلل، وما كتبه الباقلانى (٤٠٣هـ) فى الأحكام والعلل والمقنع فى أصول الفقه، وما كتبه الجوينى (٤٧٨هـ) فى البرهان والغياثى، وما كتبه الغزالى (٥٠٥هـ) فى المستصفى وشفاء العليل والإحياء والمنخول، وما كتبه فخر الدين الرازى (٦٠٦هـ) فى التفسير الكبير، وما كتبه الآمدى (٦٣١هـ) فى الإحكام فى أصول الأحكام، وما كتبه ابن الحاجب (٦٤٦هـ) فى منتهى

الوصول والأمل فى عِلمَى الأصول والجدل، وما كتبه البيضاوى (٦٨٥هـ) فى منهاج الوصول إلى علم الأصول، وما كتبه الإسنوى (٧٧٢هـ) فى نهاية السول فى شرح منهاج الأصول، وما كتبه العز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) فى شجرة المعارف والأحوال، وقواعد الأحكام فى مصالح الأنام، وما كتبه شهاب الدين القرافى (٦٨٥هـ) فى الفروق، وما كتبه نجم الدين الطوفى (٧١٦هـ) فى المصلحة [رغم جنوحه أحيانا]. وما كتبه ابن تيميه (٧٢٨هـ) فى الفتاوى، وما كتبه تلميذه ابن القيم (٧٥١هـ) فى أعلام الموقعين عن رب العالمين والطرق الحكمية فى إصلاح الراعى والرعية وبدائع الفوائد، وما كتبه ابن السبكى (٧٧١هـ) فى جمع الجوامع بحاشية البنانى، وما كتبه وأصَّله الإمام أبو إسحاق الشاطبى (٧٩٠هـ) فى الموافقات والاعتصام، وما كتبه الشوكانى (١٢٥٥هـ) فى إرشاد الفحول ونيل الأوطار، وما كتبه شاه الله الدهلوى (١٧٦٢م) فى حجة الله البالغة، وما كتبه الشيخ محمد عبده (١٩٠٥م) وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (١٩٣٥م) فى المنار، وما كتبه ابن عاشور (١٩٧٣م) فى المقاصد الشرعية والتنوير والتحرير، وما كتبه علاء الفاسى (١٩٧٤م) عن المقاصد الشرعية، وما كُتب على يد أعلام الفقه المعاصر مثل شيوخنا أبى زهرة والخضرى وعلى حسب الله ود.القرضاوى ود.عبد المجيد النجار ود.إسماعيل الحسنى وأحمد الريسونى ود. يوسف العالم ود.طه العلوانى ود. محمد البلتاجى وآخرون١.

هذه الثروة الهائلة تحتاج إلى دراسة ووعى وهضم يجعل للمقاصد مكانها فى العبادات والمعاملات.

وإنى هنا لا أفرق بين العبادات والمعاملات فى فقه المقاصد وإمكانية إدراكه فقد تخفى على فقيه دون غيره، وقد ندرك كثيرا من المقاصد فى المعاملات وقليلا فى العبادات، لكن عدم العلم لا ينفى الوجود؛ ولذا لم يكن هناك بأس من صلاة التراويح فى المسجد أيام عمر وجعلها عشرين وزادها سيدنا عثمان إلى ست وثلاثين، وأحدث آذاناً فى منطقة الزوراء، وأجاز إخراج زكاة الفطر نقدا أو من غالب قوت أهل البلد وأجاز فى الرجم اختيار أيسر الأوقات للنساء والضعفاء وأصحاب العلات.

لكن فقه المقاصد لا يعنى تجاوز نص قطعى فى حكم جزئى لمخالفته فى ذهن المجتهد مقصدا عاما بل الأولى إعمال النص لا إهماله، والجمع وليس النسخ أو الترجيح من أول بادرة لأن المقصد الكلى أُخذ من نصوص جزئية ويستحيل تعارض الجزئى مع الكلى فى النصوص الشرعية لقوله تعالى:﴿ **وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا** ﴾(النساء:٨٢).

ولعل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أكثر الفقهاء الأُول الذين جمعوا بين العمل بالنص

فى الأمر الجزئى والمقصد الكلي؛ حيث توقف فى تقبيل الحجر الأسود والاضطباع والرمل مع النص، وتوسع فى الاجتهاد المقاصدى فى سهم المؤلفة قلوبهم فى مصارف الزكاة وقطع يد السارق فى باب العقوبات والإلزام بالطلقات الثلاث، ومنع أبا حذيفة من الزواج بالكتابية، ومنع توزيع أرض السواد، وورَّث الأم ثلث الباقى بعد الزوج ليعطى للأب ضعف الأم، والعول والمسألة المشتركة٢، مما أجاب عنه أستاذى الدكتور محمد بلتاجى فى منهج عمر بن الخطاب فى التشريع فى أن سيدنا عمر كان ممن ينحو نحو فقه المقاصد والمصالح فى جميع الأحكام والأقضية[٣].

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن حادثة صلاة العصر فى بنى قريظة كانت اجتهادا مقاصديا فى أمر تعبدى فيه نص قطعى دلالة وثبوتا لكن الذين صلوا فى الطريق هم سلف أهل المعانى والقياس والذين صلوا فى بنى قريظة هم سلف أهل الظاهر كما ذكر ابن القيم وهما نمطان فكريان، ويبقى أن تجتمع القلوب مهما اختلفت العقول فإن اختلاف العقول ثراء واختلاف القلوب وباء.

ومن الاجتهاد المقاصدى ما فعله الإمام ابن تيمية – رحمه الله – حين رأى صاحبا له يكلمه عن التتار يشربون الخمر، وأنه واجب عليه أن ينهاهم، فقال له: "إنما حرَّم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذّرية وأخذ الأموال فدعهم"[٤].

هذا العلم الثرى يحتاج إلى فقهاء الشريعة والقانون كى يقفوا عنده لإحداث نقلة نوعية فى الانتقال من الاجتهاد الحرفى إلى الاجتهاد المقاصدى، ثم يوظفوه فى مجالات الحياة المختلفة.

على أن من أرقى مستويات التوظيف لعلم المقاصد فى تراثنا الإسلامى ما أفاض الله به على سلطان العلماء العز بن عبد السلام فى شجرة المعارف حيث جعل ميدان المقاصد ليس خاصا بالمعاملات دون العبادات فى جانب التشريع بل جعل من علم المقاصد ميدانا لبناء العقيدة وتشييد الأخلاق وأحكام الشريعة كلها، وسنجد فى هذا الكتاب ما أحسب أنه فى أعلى درجات التميز فى علم المقاصد فى جوانب عدة سوف أذكر بعضها هنا مع أمل أن أستكمل البحث مجتهدا فى استيفاء المنهجيات التى تناول بها سلطان العلماء علم المقاصد فى هذا الكتاب.

هذا النبوغ فى علم المقاصد والرسوخ فى العلم صاحبه نبوغ من نوع آخر فى الدعوة إلى الله والتزكية وفق منهج الله، مما جعل للعز بن عبد السلام حضورًا وتأثيرًا فى زمانه وما بعده، وأحسب أن هناك فرقًا بين الوجود والحضور فهناك أشخاص يوجدون فى المكان والزمان وبين الناس، لكن ليس لهم أى أثر؛ فهم موجودون جسمًا وغائبون حقيقة، وهذا يشبه الفيلم المصرى "شاهد ما شافش حاجة"، وكم وجدتُ – فى احتكاكى بالناس– من أمثال هؤلاء الذين يعيشون بسلبية

مطلقة داخل فصولهم مهما أساء الطلاب أو الأساتذة، وفى أُسَرهم مهما حدث فى قعر بيوتهم من انحرافات، وفى ميدان عملهم مهما حدث من سلب ونهب وخيانة للأمانات، وفى شوارعهم ومجتمعهم مهما حدث من قذارات ومخلَّفات مادية وأخلاقية، وفى دولهم مهما حدث من ظلم وطغيان وانهزام، وهناك صنف آخر قد يوجد قليلاً من الزمان لكنه يؤثِّر تأثيرًا كبيرًا بل يبقى أثره وإن غاب أو مات، وتظل روحه ونصائحه ومنهجه وحكمته شاخصة حاضرة فى عقول ووجدان الناس؛ فله فى كل قلب بصمة، وعلى كل وجه بسمة، وفى كل عقل فكرة، وها نحن نعيش بين أقوام ننساهم وهم بجوارنا ويخالطوننا فى الليل والنهار، على حين نذكر نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله ورسله والصحابة رضوان الله عليهم وكبار العلماء والمحدثين والفقهاء والمصلحين، نذكرهم وندعو لهم أكثر ممن فُرضوا علينا معلمين أو حاكمين أو جيران فى السكن أو أصدقاء فى العمل، وتظل قلوبنا معلقة بهؤلاء الحاضرين لا الموجودين فقط بقوة القدر، ولعل هؤلاء يصدق فيهم قول الشاعر:

رب قومٍ أموات تحيا القلوب بذكرهم ورب قومٍ أحياء تموت القلوب برؤيتهم

فإذا كنا لا نرى بعض العلماء إلا بجوار الأمُراء، ولا حضور لهم بين عموم الناس، فهناك بعض آخر تراه بين الناس ولا يقوم بدوره فى نصح الأمُراء والحكام، فهؤلاء وأولئك يفقدون حلقة أساسية من حلقات الإصلاح والتغيير كما سنبيِّن فى منهجية الإصلاح التى تعتمد بعد نصر الله على القادة الربانيين ووفرة من الأتباع الربانيين، وهذا ما وفق الله إليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام حيث جمع بين الأمرين.

وفى آخر البحث سوف أبيِّن هذا الحضور والتأثير والتغيير الذى أجراه الله تعالى على يد العز بن عبد السلام سواء مع عموم المسلمين أو حكامهم؛ أملاً أن تتكرر هذه الشخصية الراسخة فى العلم ومع هذا تنطلق فى الدعوة والإصلاح فيتحقق نصر الله على يدها، ونحن أحوج ما نكون إلى هذه النماذج كى نغيِّر واقعنا من أُمَّة راكدة إلى أُمَّة رائدة.

الفصل الأول

مدخل عن الإمام العز بن عبد السلام وكتابه "شجرة المعارف"

المطلب الأول: تعريف بسلطان العلماء:

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن، شيخ الإسلام الملقب بسلطان العلماء، والشيخ عز الدين أبو محمد السلمى الدمشقى الشافعى، ولد ونشأ فى دمشق سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م)، وتوفى سنة (٦٦٠ هـ/١٢٦٢م) عن ثلاث وثمانين سنة.

نشأ العز بن عبد السلام فى أسرة فقيرة، وكان مجتهدا فى طلب العلم، فزار بغداد عام ٥٩٩ هـ وكان عمره اثنين وعشرين سنة، ولم يمكث فيها إلا شهرًا واحدًا عاد بعده إلى دمشق، وتفقه على ابن عساكر، وقرأ الأصول على الآمدى، وسمع الحديث من الحافظ القاسم بن أبى القاسم ابن عساكر وغيره، ولى الخطابة والإمامة فى الجامع الأموى، ثم خرج إلى القدس ثم مصر بسبب غضب سلطان دمشق عليه، ودرَّس فى مدارس مصر وجامع عمرو بن العاص، وتولى القضاء ثم عُزل، وكانت حياته كلها جهادًا فى إنكار المنكر على السلاطين والأمر بالمعروف.

قال عنه الذهبى: "بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصلابة فى الدين، وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرَّج عليه أئمة".وقال عنه ابن دقيق العيد: "كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء". وقال عنه ابن الحاجب: "ابن عبد السلام أفقه من الغزالي". وقال عنه السيوطى: "شيخ الإسلام، سلطان العلماء،....فبرع فى الفقه والأصول والعربية...، مع الزهد والورع، وبلغَ رتبةَ الاجتهادِ". وقال عنه ابن السبكى: "شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها"(٥).

المطلب الثانى: قصتى مع كتاب "شجرة المعارف":

دُعيت فى شتاء ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م من مجمع الفقه الإسلامى بالهند لإلقاء محاضرات لعلماء الهند فى دورة شرعية خصصت عن المقاصد الشرعية، ورغم أن الرحلة قد استغرقت أربعين ساعة من (ديترويت – واشنطن – فرنسا – نيودلهي) بسبب سوء الأحوال الجوية إلا أن الجائزة الربانية قد كانت فى انتظارى على الأرض فى نيودلهى حيث ألقيت أول محاضراتى وجلست على المنصة بجوار فضيلة الشيخ عتيق القاسمى نائب رئيس المجمع ووجدت معه كتابا فريدا، كنت أبحث عنه عمرا مديدا وهو شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد

السلام سلطان العلماء، فلم أملك إلا أن أطلب من الشيخ تصفح الكتاب، وقلت له هل أستطيع أن أحصل على نسخة من أية مكتبة هنا فقال: "لا أظن!"، وبحثنا فى مكتبات نيودلهى دون جدوى فاستأذنت فى تصوير النسخة بأكملها وبعد خمسة أيام كان سفرى من نيودلهى إلى فيننا ثم إلى براغ – تشوسلوفاكيا حيث أشارك فى مؤتمر إسلامى هنالك وعزمت على نفسى بل قسوت عليها إذ أقسمت ألا أكتحل بنوم ولا بسِنة حتى أقرأ الكتاب كله، وبدأتُ أجاهد نفسى حتى لا أنام، وصرتُ أقرأ مع الإجهاد ولكن ما أن دخلت إلى حديقته وتجولت بين أشجاره وثماره وأزهاره وأنهاره وبحوره ونسيمه وعبيره حتى صرت أجاهد نفسى لأتركه قليلا ولو لتناول الطعام، وشعرت كأنى لا أقرأ فى الطائرة بل أجلس فى طيات السماء وأقترب من عرش الرحمن، ورغم الانتظار أربع ساعات فى مطار فيننا قبل الرحلة الأخيرة إلى براغ إلا أنى شعرت بأنى لم أهبط من سماء الارتقاء، وروعة الانتقاء، وجمال الالتقاء، مع ورقات سلطان العلماء العز بن عبد السلام، واستمررت بدون انقطاع حتى كان تضلعى بآخر شربة من ينابيع شجرة المعارف والأحوال مع هبوط الطائرة إلى مطار براغ، وحمدت الله على إنهاء الكتاب دفعة واحدة فى ١٥ ساعة متواصلة، وقلت إذن أذهب قبل المؤتمر لأنام فبادرنى الأصحاب والإخوان باعتذار محاضرَين كانا معى فى المؤتمر، وأننا سنذهب مباشرة إلى المحاضرات دون فرصة للنوم وكانت نشوة الفرح بهذه النعمة بقراءة هذا الكتاب ثم لقاء الأحباب فى الله أفضل سبيل للانتقال من القول إلى العمل، وكان بالنسبة لى مؤتمرًا فريدًا حيث تشبَّعتُ بالكتاب وأفضيت ببعضه إلى الأحباب من الإخوة والأخوات الذين شاركوا فى هذا المؤتمر، وعشت به ولازلت مولعًا بما فى الكتاب أُدرِّسُ بعضه هنا وأذكر عباراته هناك فى جولاتى الأسبوعية بين دولنا الإسلامية والأقليات المسلمة أو فى برامجى الفضائية أو محاضراتى الدورية. وقد وضعت فى خطتى منذ هذا التاريخ أن أكتب دراسة بعنوان "المقاصد الشرعية عند العز بن عبد السلام فى كتابه شجرة المعارف والأحوال" لكن انشغالى بالكتابة فى منهجيات الإصلاح والتغيير من خلال سور الكهف والفجر والحج وغيرها ثم كتابتى فى فقه الأقليات والأزمة الاقتصادية العالمية ورسائل تربوية ودعوية شغلنى رغم هذا الحنين المتدفق إلى معايشة هذا الكتاب مرة ثانية والكتابة عن دور العز بن عبد السلام فى ربط الفقه والأصول والمقاصد بالإيمان والإحسان بأعلى درجات التوازن بين دقة الاتباع وجودة الإبداع حتى جاء مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، وطُلِبَت مشاركة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمملكة البحرين الذى يشرفنى العمل به مستشارا فجاءت عناوين المحاور والموضوعات تحت عنوان: "مقاصد الشريعة وقضايا العصر" فوجدت عقلى وقلبى معا ينجرفان نحو العز بن عبد

السلام كى أبدأ الكتابة والبحث عن دوره فى خدمة المقاصد وترطيب الفقه كله.

المطلب الثالث: تعريف بكتاب: "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال والأقوال":

لسلطان العلماء مؤلفات ومصنفات زادت عن الثلاثين، وتتنوع بين علوم القرآن وتفسيره، وعلوم الحديث ودراسات حول أحاديث بعينها مثل حديث "أم زرع" وحديث "لا ضرر ولا ضرار"، كما كتب فى علوم العقيدة والتوحيد، لكن الأكثر والأظهر فى كتاباته تتعلق بالفقه والفتاوى وأصول الفقه والمقاصد، أما كتاب "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال والأقوال" فهو يجمع بين المقاصد الشرعية بلمسات إيمانية ونظرات ربانية – كما أحب أن أسميه– وقد صنفه الدكتور محمد الزحيلي[٦] فى كتب الزهد والتصوف والتربية والأخلاق وفضائل الأعمال، وحدود علمى أن الكتاب له التحقيقات التالية:

١. تحقيق أ.إياد خالد الطباع، وقد طبع بدار الطباع بدمشق، ١٤١٠هـ /١٩٨٠م، ويقع مع الفهارس فى ٥٢٣ صفحة، ومقدمة فى ٤٦ صفحة[٧].

٢. تحقيق أ.أحمد فريد المزيدى، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، وقد جاء فى قرابة ٣٣٠ صفحة، وقد أضيف عليه كتاب آخر فى نفس النسخة، وهو كتاب "الشجرة فى الوعظ" للعلامة عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسى، ت٦٧٨ هـ، وقد جاء الأخير فى حوالى ٧٠ صفحة.

٣. أما التحقيق الثالث وهو الذى اعتمدت عليه فى دراستى هذه فهو تحقيق أ.حسان عبد المنان، طبعة بيت الأفكار الدولية، بدون سنة طبع، وقد جاء صلب كتاب شجرة المعارف فى حوالى ٣٧٠ صفحة، وقد صُدِّر بمقدمة وترجمة من المحقق فى ١٠ صفحات، وخُتم بفهارس دقيقة مستوفية للآيات والأحاديث والموضوعات قاربت ١٠٠ من الصفحات، أما مضمون الكتاب فقد جاء فى عشرين بابًا، وقد تراوحت بين أبواب طويلة تصل إلى خمسين صفحة، مثل الباب الخامس: المأمورات الباطنة، حيث أورد تحته ١٦٧ مسألة، والباب السادس: المنهيات الباطنة، حيث أورد فيه ١١١ مسألة فى ٣٠ صفحة، ومن الأبواب الطويلة أيضا الباب العاشر بعنوان: الإحسان ببذل الأموال، حيث أورد فيه ٨١ مسألة فى حوالى ٥٠ صفحة أيضا، على أن أقصر الأبواب هما البابان الثالث والرابع حيث جاء الثالث فى صفحة ونصف، أما الباب الرابع فقد جاء فى أقل من صفحة.

المطلب الرابع: الكتاب بين العنوان والمضمون:

يبدو جليا أن وراء تسمية الكتاب فلسفة لكنها فلسفة مسلم موصول بالله، وليست فلسفة ملحد أو

فاسق أو فاسد لا يؤمن بالله ربًا ولا بالإسلام دينًا ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولا، فهو يستدعى آية الشجرة فى سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم:٢٤-٢٥)، ليجعل من القلب كأنه الأرض، والأرض تتفاوت خصوبة وضعفا حسب نوعها ثم يجعل جذر الشجرة هو معرفة الله عز وجل، وساقها وفرعها هو معرفة صفات الله تعالى، أما الأوراق والأزهار والثمار فهى الأحوال والأقوال والأعمال.

يقول العز بن عبد السلام: "اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالا علية، وأقوالا سَنِية، وأفعالا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجات أخروية، فمثل معرفة الذات والصفات كشجرة طيبة أصلها – وهو معرفة الذات- ثابت الحجة والبرهان، وفرعها – وهو معرفة الصفات – فى السماء مجدًا وشرفًا، (تؤتى أكلها كل حين) من الأحوال والأقوال والأعمال، (بإذن ربها) وهو خالقها، إذ لا يحصل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه، مَنبِت هذه الشجرة القلب، الذى إذا صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسد كله"[٨].

وقد جعل الإمام العز لهذه الشجرة ثلاثة فروع لكل فرع منها شعب وأغصان:[٩]

١. الفرع الأول: معرفة الصفات السالبة لكل عيب ونقصان كسلب السِنة والنوم والظلم.

٢. الفرع الثانى: معرفة صفات الذات وشُعَبِها سبعة: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

٣. الفرع الثالث: معرفة الصفات الفعلية، وشُعَبِها كثيرة كالضر والنفع، والغفر والستر، والإنعام والإفضال، والإعزاز والإذلال.

وبيَّن أن معرفة كل شعبة من هذه الشعب تثمر ما يناسبها من الأحوال، وما يلائمها من الأقوال والأعمال، وضرب أمثلة لذلك فقال: "فعارف الجمال محب، وعارف الجلال هائب، وعارف سعة الرحمة راغب"، وبيَّن أن من فقد فرعا من فروع هذه الشجرة فقد ثمراته فى الحال وفى المآل، ثم حثنا على جودة الغرس وتعهد الزرع فقال: "فطوبى لمن غرس هذه الشجرة بالنظر، وتعهدها بالتقوى، وحرسها بالاستقامة، وصانها من رياح الهوى، وخاف عليها من صواعق الشك، وبوائق الشرك، وجوائح سوء الخاتمة"[١٠].

نحن إذن أمام إمام يدخل إلى علم المقاصد من باب الإيمان والإحسان وهى ثمرات المعارف

التى تنتج أحوالا وأقوالا وأعمالا صالحة ترضى الرحمن وتسعد الإنسان فى الحال وفى المآل، ويستدعى هذه المعانى الطيبة ليضرب المثال ويزول الإشكال ويقترب من هذا السؤال الذى أورده الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " **أخبرونى بشجرة مثلها مثل المسلم، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحت ورقها. فوقع فى نفسى أنها النخلة، فكرهتُ أن أتكلم، وثم أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما، قال النبى صلى الله عليه وسلم: هى النخلة**"[١١]، فالمؤمن فعلا كالنخلة فى عمق جذورها، وعزة ساقها، ومرونة فرعها، وجمال شكلها، وطيب مخبرها، فيستفاد بكل جزء منها جِذرًا وساقًا وجريدًا وتمرًا كما قال شوقى عن التمر:

طعام الفقير وحلوى الغنى وزاد المسافر والمقتصد

وكأنى بالإمام العز فى اختياره لهذا الاسم أراد أن يربطنا بمفهوم الشجرة ودلالاتها القريبة والعميقة حيث وردت كلمة "الشجرة" ومشتقاتها فى القرآن حوالى ٢٦ مرة، أكثرها يتحدث عن الشجرة التى نهى الله تعالى آدم وحواء من الأكل منها، وأرقاها شجرة النور فى سورة النور، وأطيبها شجرة تخرج من طور سيناء، وأسترها شجرة من يقطين سترت سيدنا يونس عليه السلام، وأنفعها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء مثل الكلمة الطيبة، وأرقها التى تُذكِّر ببيعة الرضوان بين النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة على البذل والجهاد والقتال تمكينا للإسلام والمسلمين، وأوفرها شجرة ظلها ممدود يفسره حديث النبى ﷺ الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **[إن فى الجنة شجرة، يسير الراكب فى ظلها مائة عام، لا يقطعها، واقرؤا إن شئتم: {وظل ممدود}**"[١٢]، وأخبثها شجرة ككلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وأبغضها شجرة الزقوم.

الفصل الثانى

خصائص علم المقاصد فى "شجرة المعارف"

المطلب الأول: التضلع بالقرآن والتشبع بالهدى النبوى فى طرح المقاصد:

لا أبالغ إذا قلت إن الإمام العز بن عبد السلام فى كتابه شجرة المعارف قدم نموذجًا لم يُسبق ولم يُلحق حتى الآن فى ربط المقاصد بنصوص القرآن والسنة ربطًا يجعلك أمام عالم تضلع[١٣] بحق وتشبع بعمق من معين القرآن والسنة، والعجيب أن كُتَّاب عصره ومن سبقه بقرنين ومن لحقه بقرون قد أغرقوا فى الأسلوب العقلانى الذى يُشعر الإنسان أنه يسير فى صحراء العقل الذى يخلو من أشجار النقل فيؤلمه التصحر، ولا يجد ظلا ممدودا من نسمات الوحى الربانى، فيجد من لفحات المنطق العقلى والسبر والتقسيم والرد والمعارضة والحوار والمناظرة ما يجعل الإنسان يشعر أنه محروم من نفحات الوحى القرآنى والهدى النبوى وهى مثل النسيم العليل الذى يرطب الأجواء فى الصحراء الجرداء.

وإذا أردنا أن ننتقل إلى لغة الأرقام فإننا سنجد أنفسنا أمام كتاب شجرة المعارف لا يزيد فى صفحاته عن ٤٠٠ صفحة مع التحقيق والفهارس لكنه أورد أكثر من ١٤٠٠ آية، أما الأحاديث النبوية فقد بلغ عددها أكثر من ٦٥٠ حديثا.

وإذا أردنا أن نقارن بين الإمام العز بن عبد السلام وأئمة الفقه والأصول فى المذهب الشافعى نفسه فسنجد على سبيل المثال الإمام الغزالى فى كتابه: المستصفى من علم الأصول وهو أكبر حجما لكنى أحسب أن عدد الآيات والأحاديث فى كتاب المستصفى لا يصل إلى ٥% مما أورده الإمام العز بن عبد السلام، فإذا جئنا إلى ما كتبه الإمام الجوينى فى البرهان وهو ضعف كتاب شجرة المعارف لكن النصوص من قرآن وسنة ربما لا تزيد عن ١٠% مما ورد فى هذا الكتاب العظيم، ولا يكاد يقترب مما قدمه العز بن عبد السلام إلا ما ورد فى كتاب الإمام الشافعى الرسالة الذى كتبه وراءه بمصر الربيع بن سليمان المرادى مؤذن مسجد الشافعى وحققه الأستاذ أحمد شاكر، حيث يأتى علم الأصول ممزوجا فى الرسالة بأصل الأصول وهو القرآن الكريم ثم بيانه من السنة النبوية المطهرة، ولم يستطع تلاميذ الشافعى أن يحتفظوا بهذه الصبغة بل أغرق الكثير منهم فى التمنطق على حساب النص كما نلحظ فى كتابات الآمدى والبيضاوى والسبكى على تفاوت فيما بينهم. ومع هذا فإننى أعتقد أن التلميذ قد سبق أستاذه الشافعى حيث نجد الشيخ العز بن عبد السلام يسوق بين كل سطر وآخر آية أو آيات حتى لإنه ليورد أكثر من ٤٠ آية تحت عنوان واحد فى الباب الأول، المسألة الثانية تحت عنوان "سلب المشارك – أى لله– فى الذات والصفات

والتصرفات"[١٤]، وفى الباب السابع عشر[١٥] يورد أيضا قرابة ٤٠ آية فى باب لا يتجاوز ٥ صفحات بل إن هناك عناوين متوالية فى كتابه لم يورد غير آية أو حديث مثل المسألة٧ "صلة الأرحام"، وفى الباب ١٧[١٦] حيث يورد ٣ آيات وحديثين دون تعليق، والحق الذى يجب أن نؤول إليه أن كثيرا من الطرح الفقهى والأصولى والمقاصدى تكثر فيه الأقوال والآراء والاستدلالات والاستنتاجات والمعارضات وتقل فيه الأحاديث والآيات، وهو يشبه العقود التى تقل فيها الدرر الثمينة، أما الشيخ العز بن عبد السلام فكتابه عبارة عن عقود من اللآلئ الحسان من اللؤلؤ والمرجان والألماس بقليل من الكلام وكثير من وحى الله عز وجل، وبراعة الكتابة هنا ليس فقط فى كثرة الاستدلال وإنما فى الدقة التى تلحظها فى استدلالته بنصوص القرآن والسنة.

وفى المسألة ٤٤ من الباب العاشر[١٧]: الإحسان ببذل الأموال – جهد المقل– يستدل بالآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(التوبة:٧٩)، والحديثين: "تصدق رجل من دينارة، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره (حتى قال) ولو بشق تمرة"[١٨]، و(**لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به ويستغنى به من الناس، خير له من أن يسأل رجلا، أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى**)[١٩]، فجهد المقل قد يكون عملا يبذله أو شق تمره يتصدق بها أو احتطابا يتصدق بجزء من عائده ويستغنى به عن غيره.

أحسب أن علماء المقاصد لو استفادوا من منهجية العز بن عبد السلام فى كثرة الاستدلال بنصوص القرآن والسنة، وبراعة الاستهلال بعبارات دقيقة لدخلت المقاصد إلى قلوب وعقول المسلمين فى كل مكان ولذا أجد فى دول شتى علماء يرفضون الاقتراب من فقه المقاصد خشية أن يكون التقصيد العقلى سببًا فى تهميش الوحى الربانى، وهؤلاء إن لم يكونوا معذورين تماما لكن بعض العذر يلتمس لهم؛ لأننا نجد فى واقعنا من يتذرع بالمصالح والمقاصد لإبطال العمل بالنص، ولست أرى ذلك إلا عجزا عن فهم النص.

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فذًا فى الجمع بين دقة الاتباع للنص وجودة الإبداع فى تحقيق المقاصد فى المسألة العمرية وبيانها كالتالى:

الورثة	زوج	أم	أب
الأنصباء	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{3}$	ق.ع
الأصل٦	٣	٢	١
		الأم ترث ضعف الأب	

الورثة	زوج	أم	أب
الأنصباء	$\frac{1}{2}$	$\frac{1}{3}$ الباقى	ق.ع
الأصل٦	٣	١	٢
		الأم ترث نصف الأب	

الورثة	زوجة	أم	أب
الأنصباء	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{3}$	ق.ع
الأصل١٢	٣	٤	٥
		نصيب الأم يقترب من نصيب الأب	

مذهب ابن عباس

الورثة	زوجة	أم	أب
الأنصباء	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{3}$ الباقى	ق.ع
الأصل١٢	٣	٣	٦
		نصيب الأم نصف نصيب الأب	

مذهب سيدنا عمر وزيد

إن عمر بن الخطاب هنا قد أعمل النص الجزئى وهو: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ (النساء:١١) مع النص الكلى، فالتطبيق الحرفى لهذه الآية وحدها يجعل الأم ترث ضعف الأب وهو زوجها وكفيلها ووليها وحاميها، وهما متساويان فى قوة القرابة ودرجتها إلى المتوفى، والأصل فى مثل هذه الحالة إعمال هذا النص الكلى فى بابه﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء:١١)، ولا يمكن أن يناقض نصف الآية صدرها، بل يستحيل أن يوجد تناقض فى القرآن كله ومن هنا فإن عمر بن الخطاب بهذا الفقه العمرى السديد الذى لم يهمل نصا جزئيا، ولا قاعدة كلية، فأعطى للزوج حقه وهو النصف فى هذه المسألة ثم عاد إلى التوريث من جديد فأعطى الأم ثلث الباقى وللأب الباقى تعصيبا فورث ضعف الأم فاعتدلت الموازين وأُعملت النصوص الكلية والجزئية، ولا أدرى كيف فات ذلك على حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ.

المطلب الثانى: إعمال المقاصد فى العقائد والأخلاق والتشريع:

لقد شاع إعمال المقاصد بجزء من التشريع وهو المعاملات حتى أورد الإمام الشاطبى فى موافقاته: "الأصل فى العبادات بالنسبة إلى المكلَّف التعبد دون الالتفات إلى المعانى، وأصل العادات الالتفات إلى المعانى. أما الأول، فيدل عليه أمور: منها الاستقراء؛ فإنا وجدنا الطهارة تتعدى محل موجبها، وكذلك الصلوات خُصت بأفعال مخصوصة على هيئات مخصوصة، إن خرجت عنها لم تكن عبادات، ووجدنا الموجِبَات فيها تتحد مع اختلاف الموجَبَات، وأن الذكر المخصوص فى هيئة ما مطلوب، وفى هيئة أخرى غير مطلوب، وأن طهارة الحدث مخصوصة بالماء الطهور وإن

أمكنت النظافة بغيره، وأن التيمم – وليست فيه نظافة حسية– يقوم مقام الطهارة بالمـاء المطهـر، وهكذا سائر العبادات؛ كالصوم والحج وغيرهما، وأما أن الأصل فى العادات الالتفات إلى المعانى، فلأمور: أولها:الاستقراء، فإنا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد، والأحكام العادية تـدور [معـه] حيثما دار، فترى الشيء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصـلحة جـاز، كالدرهم بالدرهم إلى أجل، يمتنع فى المبايعة، ويجوز فى القرض، وبيع الرطب باليـابس، يمتنـع حيث يكون مجرد غرر وربا من غير مصلحة، ويجوز إذا كان فيه مصلحة راجحة، ولم نجد هـذا فى باب العبادات مفهوما كما فهمناه فى العادات"[٢٠] .

وإذا كانت العبادات خارج نطاق علم المقاصد فمن باب أولى علم الأخلاق وأصول العقيـدة، لكنا هنا نجد الإمام العز بن عبد السلام يجعل من أصول العقيدة والأخلاق ميـدانا رحبـا لتطبيـق المقاصد. أما فى جانب العقيدة فالكتاب يمتلئ بهذه النظرات الفريدة التى تجعل من أصول العقيـدة ميدانا، ومن الأمثلة على ذلك فى كتاب شجرة المعارف ما يلى:

١. "فثمرة معرفة الرحمن: أحوال عليَّة، وأقوال سَنيَّة، وأفعال رضية، ودرجات أخروية"[٢١].
٢. "وثمرة معرفة أحكام الله: اجتناب الطغيان، واتباع الرضوان"[٢٢].
٣. "وثمرة معرفة الوعد والوعيد: الاعتبار بما أصاب أهل العصيان، والإقبال علـى الطاعـة والإحسان"[٢٣].
٤. "وثمرة معرفة نفاسة الآخرة وبقائها: الإقبال عليها والابتدار إليها"[٢٤].
٥. "ثمرة معرفة القهار سبحانه الخوف الشامل والوجل الكامل"[٢٥].
٦. "التوجع لعذاب الله وسيلة إلى دفعه بالتقوى"[٢٦].
٧. "الجزع وسيلة إلى ترك كثير من الطاعات"[٢٧].

أما الأخلاق فإنها تبنى على معرفة الخلاَّق، فليست مبنية على الذوق الفردى فقط والاستملاح الشخصى والعرف الاجتماعى، بل أصلها عنده معرفة الله والتخلق بصفات الرحمن؛ ولذا كان الباب الأول بعد المقدمات بعنوان: "التخلق بصفات الرحمن على حسب الإمكان" وساق فى هـذا الفصـل ٤٥ مسألة من أعجب ما يقرأ الإنسان عن عمق العقيدة المُفضية إلى صدق التزكية وصلابة الخلق، فيؤسس العز بن عبد السلام أن الأخلاق الإيمانية تبدأ بمعرفة الله عز وجل فيقول:

١. "المعارف كُوى[٢٨] ينظر منها بالبصائر إلى عالم الضمائر، فتشاهد القلوب ذاتـه وصـفاته، فتعامله بما يليق بجلاله وجماله، ثم تأمر الأعضاء والجوارح بأن تعامله بما يليـق بعظمتـه وكماله، فالقلوب بحضرته تعظمه، والجوارح على أبواب القلوب توقره وتعبده، فلا يصـلح

أحد منهم لموالاته ومصافاته، إلا أن يتخلق بآدابه ويتصف بصفاته، تذللا بعباداته، وتجملا بصفاته، فأفضلهم فى ذلك أكرمهم عليه، وأقربهم إليه"(٢٩).

٢. ويقول: "الحياء وازع من كل قبيح، فمن لاحظ جانب العباد استحى منهم، ومن لاحظ جانب الله استحى منه، ومن لاحظ الجانبين أعطى كل واحد منهما حقه من الحياء، ومن اطَّرح الحياء صنع ما شاء من القبائح والسيئات"(٣٠).

٣. ويقول: "الشح والبخل وسيلتان إلى منع الحقوق، وسفك الدماء، وقطع الأرحام"(٣١).

قد مزج الإمام مزجًا لطيفًا بين الأخلاق والعقيدة من جانب والشريعة من جانب آخر فيعقد الباب الأول بعنوان: "التخلق بصفات الرحمن" ويورد فيه ١٠ مسائل، والباب الثانى: "التخلق بالأسماء والصفات" ويورد فيه ٤٥ مسألة، والباب الثالث بعنوان: "ما تشتمل عليه القلوب من الصفات والأخلاق"، ولا أبالغ إذا قلت كل صفحات الكتاب تؤسس لأرقى المكارم الأخلاقية مرتكزة إلى العقيدة القوية والأحكام الفقهية أما عن ارتباطها بالعقيدة فمن ذلك قوله: "لا يصلح لولاية الديان من لم يتأدب بآداب القرآن، ولم يتخلق بصفات الرحمن، على حسب الإمكان؛ فإنه محسنٌ أمر بالإحسان، مفضلٌ أمر بالإفضال،..... فمن تخلق بصفات ذاته صلح لولايته ورضوانه"(٣٢)، ويعمق أساس الأخلاق بما سبق ذكره: "المعارف كوى ينظر منها بالبصائر إلى عالم الضمائر، فتشاهد القلوب ذاته وصفاته، فتعامله بما يليق بجلاله وجماله، ثم تأمر الأعضاء والجوارح بأن تعامله بما يليق بعظمته وكماله، فالقلوب بحضرته تعظمه، والجوارح على أبواب القلوب توقره وتعبده، فلا يصلح أحد منهم لموالاته ومصافاته، إلا أن يتخلق بآدابه ويتصف بصفاته، تذللا بعباداته، وتجملا بصفاته، فأفضلهم فى ذلك أكرمهم عليه، وأقربهم إليه"(٣٣). ثم يُفصِّل فيجعل من صفات الرحمن وأسمائه أساسًا لكل خُلق فيقول: "وأما التخلق به: فالتكلم بكل ما دلَّك عليه، وأرشدك إليه، مما يزلفك لديه، من ذِكره، وشكره، وتلاوة كتابه، وإفهام خطابه، وتعليم كل ما أمرك بتعليمه، وتفهيم كل ما أمرك بتفهيمه، والأمر بكل معروف، والنهى عن كل منكر"(٣٤)، ومن التخلق باسمه الوهاب سبحانه وتعالى يقول الإمام العز: "الوهاب؛ ثمرة معرفته رجاء أنواع هباته وصلاته، والتخلق به بكثرة الهبات والصلات مقدِّمًا للآباء والأمهات، والبنين والبنات"(٣٥).

أما فى الجانب التشريعى فالكتاب يذخر بالأمثلة العديدة، لكنه عرض فى الباب ١٨ لأساليب تُعرِّف المصالح والمفاسد وما يقدم منها عند التعارض فيقول: "ونقدم فى الحروب الأشجع، والأنفع فالأنفع فى معرفة الحروب ومكايد القتال، ونقدم قتال أضرّ الكفار على المسلمين فأضرِّهم، فإذا لقيناهم بدأنا نفتك ذوى الرأى منهم والأبطال، ونؤخِّر الأسرى إلى آخر الأمر، ونقدم الجهاد المتعيِّن

على بر الآباء، وبر الآباء على جهاد لم يتعين"[٣٦].

ويقول فى باب "ترتيب المصالح والمفاسد": "والصدق، الذى لا يضر ولا ينفع مباح؛ فإن أضر كان فيه إثم ذلك الإضرار على اختلاف مراتبه، فمن دلَّ ظالما على مال معصوم، أو بُضعٍ، أو نفس، أو غير ذلك من الحقوق، فلا إثم عليه، من جهة كونه صادقا، وعليه إثم الدلالة على ذلك الإضرار"[٣٧].

هذه نماذج قليلة من أمثلة عديدة وفيرة تملأ العقل بفقه مقاصدى نادر لكنه يتسع باتساع الوحى القرآنى الذى يشمل العقائد والأخلاق والتشريع مما يوجب أن تتوسع معه ميادين علم المقاصد كما فعل العز بن عبد السلام.

المطلب الثالث: مزج الإحسان والورع بمسائل الفقه الإسلامى:

هناك ظاهرة فى تراثنا الفقهى يُعبِّر عنها الدكتور محمد عمارة ويرددها دائما فى برامجه ومحاضراته الفضائية بقوله: "إن ظاهرة تكاد تملأ تراثنا التاريخى وهى أننا نجد فقهاء بلا قلوب، وصوفية بلا عقول"، وقد عانيت صغيرًا وآلمنى شابًا وأعالجه باحثًا هذا الفصام بين أبواب الفقه والأصول والإيمانيات، فصرنا إذا أردنا ترقيق القلوب لابد أن نترك كتب الفقه إلى كتب الرقائق، فمثلا عند الغزالى لابد أن تترك المستصفى من الأصول إلى كتابه إحياء علوم الدين كى يتلمس الإنسان شيئا يرقق القلب، وإذا عشت مع كتاب السرخسى فى "أصوله أو مبسوطه" فيندر أن تجد لمحة إيمانية أو بصمة ربانية، وإنما تجد عقلا يفكر ويستدل ببراعة على موضع الشاهد فقط من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الاجتهادات الفقهية مما يحرك العقل ولا يلمس الوجدان، ويوسع الفكر ولا يروى العطشان إلى رى القلب بمشاعر الإيمان ومشاعل الإحسان، لكنا هنا عند سلطان العلماء نجده عندما يتعرض إلى علم المقاصد والمصالح والثمرات المرجوة من العبادات والمعاملات نجده يصدر عن قلب عارف بالله، وعقل واعٍ بأحكام الله، ونفس تشبَّعتْ وتضلَّعتْ بمزج كل أحكام الإسلام عقيدة وأخلاقا وتشريعا بالورع والإحسان، وسوف أذكر هنا أمثلة تشوِّق كل صاحب نهم فى العلم أن يغوص فى أعماق هذا الكتاب الثرى الندى ليغرف من بحاره ما يملأ العقل بعمق الفكر، والقلب بنور الإحسان، ويكاد يكون نصف الكتاب حديثا مستفيضا عن الإحسان حيث تكلم فى الأبواب: (٧- ١٣)، ثم عاد إلى الإحسان فى الباب١٧ وإلى الورع فى الباب٢٠، وفيما يلى أورد بعضا من هذه الفرائد العجيبة فى طرح الإيمان للعز بن عبد السلام يمزج فيها الورع والإحسان بالفقه الإسلامى، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتى:

١. "الخُطب إحسان إلى سامعيها بما تشتمل عليه من مدائح الرحمن، الموجبة للذل والإذعان،

وفوائد القرآن، المتقاضية لكل إحسان، والمواعظ الناجعة فى إصلاح الأديان، والدعاء المرجو إجابته لكل قاص ودان"[٣٨].

٢. يقول فى باب الإحسان العام: "وذلك بالعدل وغيره مما دق وجل وكثر وقل، فلو طلبت قتل النملة والنحلة لوجدته فى قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٨)، ولو طلبت سقى الكلاب لوجدته فى قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٨)، ولو طلبت قتل الحية والعقرب لوجدته فى قوله تعالى:: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٨)، فإن قتلهما إحسان إلى الناس بما يندفع به من شرهما مقدم على فساد بنيتهما لرجحانه عليه، فإن المصالح إذا رجحت على المفاسد قدمت المصالح، وإن رجحت المفاسد أُلغيت المصالح، ولذلك قال تعالى فى الخمر والميسر: ﴿ **إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ (البقرة: ٢١٩)، فلذلك حُرِّما"[٣٩].

٣. ويقول فى باب اجتناب ضرب الخدم والنساء: "قالت عائشة: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد فى سبيل الله". ترك ضرب هؤلاء توفير للرحمة والرأفة، فإن من يعتاد على ضرب الناس تقل رحمته وتبعد رأفته"[٤٠].

٤. ويقول فى باب تقديم من تُخشى فتنته فى العطية: "قال ﷺ: **(إنى لأعطى الرجل، وغيره أحب إلى منه، خشية أن يكب فى النار على وجهه"، وإنما قدمه لأنه يحفظ بذلك دينه، وحفظ الأديان أهم من حفظ ما عداها)**[٤١].

٥. ويقول: "كتب ﷺ إلى هرقل: **(أسلِم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)**، عرض الإسلام على الكفار إحسان إليهم بالتوسل إلى نقلهم من الكفر إلى الإيمان ومن أسباب السخط إلى أسباب الرضوان"[٤٢].

هذه أمثلة من بين المئات من الأمثلة الأخرى فيما كتبه الإمام العز بن عبد السلام فى إدخال الورع والإحسان فى كل ما دق وجل من أحكام الإسلام، حتى إنه ليختم كتابه كله بالباب العشرين عن الورع.

يقول فى باب الورع جامعًا بين الإيمانيات والفقهيات: "الورع حزم واحتياط لفعل ما يتوهم من المصالح، وترك ما يتوهم من المفاسد، وأن يجعل موهومتها كمعلومتها عند الإمكان، فكل فعل

تحققت مصلحته فهو: واجب، أو مندوب، أو مباح، فإن تردد بين الواجب والندب، أو الواجب والمباح، أتى به على صفة الواجب تحصيلا لما يتوهم من مصلحة الإيجاب، وإن تردد بين المندوب والمباح أتى به على صفة المندوب تحصيلا لما يتوهم من مصلحة الندب. وكل فعل تحققت مفسدته فهو: حرام، أو مكروه، أو معفو عنه؛ لجهل أو غفلة أو نسيان، فإن تردد بين المحرم والمكروه، أو بين المحرم والمباح، أو بين المكروه والمباح، فالورع اجتنابه دفعا لما يتوهم من مفسدة المكروه أو الحرام"(٤٣).

الفصل الثالث

سلطان العلماء ودوره القيادى فى عصره

المطلب الأول: منهجية الإصلاح فى الإسلام بين الأمَّة والأئمة:

كنت ولا زلت أتعجب لهذه المكانة العالية التى رفع الله بها أهل العلم إلى مصافِّ الملائكة فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨)، ورفع لهم الدرجات فقال سبحانه: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ (المجادلة: ١١)، وعُدْتُ إلى أرض الواقع بكل آلامه وشجونه وما نعانيه من أزمة تخلف وتبعية وذل ومهانة، وتمزق وتفرق، وتحلل وتحجر، واستيراد واستهلاك، وإسراف وتبذير، وظلم واستعباد، وتدنٍ فى الأخلاق، وتسابق فى التفاهات، وضياع للضروريات وانفراط فى الترفيات، وفقر وجهل ومرض، وعصبية وتطرف، وعنف وغلو، واحتلال أرض فلسطين، وإخراج ٦ ملايين من ديارهم، وأسْر ١١ ألف رجلاً وامرأة وطفلاً، وتهويد القدس والأنفاق تحت المسجد الأقصى هذا بالإضافة إلى ٨ مليون من الأيتام والأرامل خلَّفهم الاحتلال وأعوانه فى أرض الرافدين، وبحر الدماء الذى يسيل ثجاجًا فى أفغانستان وباكستان والصومال والسودان واليمن، هذا كله جعلنى أتساءل بحرقة أين الخلل؟! ومن المسئول عن هذه الأزمات؟! وإذا كان منطق العقل يقتضى أن هناك جزءًا من المسؤولية على كل مسلم فى الأرض، فلا يعفى أحد من المسؤولية، ولكن يبقى السؤال مَنْ المسئولون الأوُّل هل الحكام؟! أم العلماء؟! أم العوام؟! وقد انتهى بى التفكير إلى أن المسئولين الأُوَل هم العلماء قبل الأمراء وعموم الأمة، وذلك لأن علماء الأمة الإسلامية هم عقلها الواعى، وقلبها الحى اليَقظ، ولسانها المعبِّر عن تطلعاتها وآلامها، فقد احتلوا موقع الرأس من جسمها، وتربصوا على عروش قلوبها فى كل مراحل العافية فيها كما تدل على ذلك النصوص الشرعية والحقائق التاريخية.

لقد أنيط بهم وحدهم حفظ الرسالة بيضاء نقية وقيادة الأمة فكريًا، كما أنيط بهم أن يكونوا الرقيب والناصح لأصحاب الولايات العامة، وأن يتحملوا قيادة الأمة عمليًا عند فساد الأجواء، لذلك كانت حملة الظالمين عليهم أشد، واستهداف لشراء ذممهم أعظم وأخطر، ولكن النص المعصوم من الكتاب والسنة دلَّ على أن بقية الخير فيهم قائمة إلى يوم الدين، لتبقى الحجة بهم قائمة على الخلق ما بقيت على الأرض حياة، كما قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٩).

وعندما عُدْتَ أتأمل فى هذه الشريحة بشكل خاص وجدت كمًا هائلاً من العلماء الذين عندهم وفرة كبيرة جدًا فى العلم والتفسير والحديث والفقه والعقيدة وهم ليسوا عشرات الآلاف بل مئات الآلاف سواء كانوا أئمة متخصصين أو بالممارسة الدعوية ومع ذلك أمتنا راكدة والواجب أن تكون رائدة شاهدة على العالم كله! كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

رجعتُ إلى سيد العلماء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتُ أن سيدنا إبراهيم قد دعا ربه كما قال سبحانه﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٩)، فأجابه ربه تعالى بقوله: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١)، فوجدتُ أن العلم والتلاوة لابد أن يصاحبهما تزكية لأن العلم يعالج الشبهات لكن مجاهدة النفس هى التى تعالج الشهوات وترسخ الإيمان فى القلوب وأول قوم يجب أن يبالغوا ويجتهدوا فى تزكية أنفسهم وتهذيب أهوائهم وتنمية قدراتهم هم العلماء.

وبناء على هذه الآية وغيرها يمكن تقسيم العلماء إلى مقامات ثلاثة:

١. **المقام الأول:** مقام الراسخين فى العلم هؤلاء الذين تَبحَّروا فى أصول العلم وفروعه، وواصلوا الليل والنهار فى القراءة والبحث والتفكير والكتابة، وهؤلاء هم أولوا الألباب كما قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران:٧)، فإذا لم يكونوا راسخين فى العلم وقعوا فى التلبيس والتشويش فى فهم الرسالة وفى ضعف البصيرة.

وأحب أن أؤكد هنا أن هناك زخمًا غير عادى فى جمع مفردات العلم، والنبوغ فى بعض

فروع الشريعة وأصول الدين، غير أن جمهرة عديدة من هؤلاء تحوّل الأمر إلى إثبات ذاتٍ، ودوران حول النفس، ورغبة فى الترقية الأدبية والمادية، لكنهم يُسوِّفون الدعوة والتزكية والتربية إلى ما بعد التمكن العلمى والمادى والإدارى، لكن هؤلاء يَنْسَوْن أن حركة الماء تُنقيِّه وأن الماء الراكد يفسد ويأسن ويتعفن كما قال الشافعى:

مـــا فـــى المقـــام لـــذى عقـــل وذى أدب
مـــن راحـــة، فـــدع الأوطـــان واغتـــرب
ســـافر تجـــد عوضًـــا عمـــن تفارقـــه
وانصـــب فـــإن لذيـــذ العـــيش فـــى النصـــب
إنـــى رأيـــت وقـــوف المـــاء يفســـده
إن ســـاح طـــاب وإن لـــم يجـــرِ لـــم يَطِـــب
والأُسْـــدُ لـــولا فـــراق الغـــاب مـــا افترســـت
والســـهم لـــولا فـــراق القـــوس لـــم يُصـــب
والشـــمس لـــو وقفـــت فـــى الفلـــك دائمـــة
لَملَّهـــا النـــاس مـــن عُجـــم ومـــن عـــرب
والتِّبـــر كـــالتُّرب ملقًـــى فـــى أماكنـــه
والعـــود فـــى أرضـــه نـــوع مـــن الحطـــب
فـــإن تغـــرَّب هـــذا عـــزَّ مطلبـــه
وإن تغـــرَّب ذاك عـــزَّ كالـــذهب

ولا حلَّ لهؤلاء سوى أن يكون الرسوخ فى العلم تمكينًا للإسلام لا للأشخاص، ودوران حول الرسالة لا النفس ووصولاً إلى البصيرة المؤهلة للدعوة وليس الشهادة الموصلة للمكاسب والمناصب!.

٢. **المقام الثانى:** مقام الدعاة الذين لا يكتفون بالتعلم وإنما ينطلقون إلى التعليم، ويبلغون ولو آية، ويحدثون بكل حديث حفظوه، وبكل معنى درسوه، عملا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم: **(بلغوا عنى ولو آية)**[٤٤]، وهؤلاء كما الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (فصلت:٣٣)، فإذا لم يفعلوا وكتموا الحق مهما كان مُرًّا

واسترضوا الخلق ونسوا الخالق فإن لعنات الله عز وجل تلاحقهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (البقرة:١٥٩،١٦٠)، وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: **(من كتم علمًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)**[٤٥]، فإذا كانت هذه الدرجات العالية لمن يُبلِّغ دعوة الله فيقابلها دركات ولعنات لمن يكتم كلمة الله، لأن العلماء يجب أن يتحملوا مسؤوليتهم فى بيان الحق وإنكار المنكر دون خشية إلا من الله، كما قال الله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب: ٣٩)، وهؤلاء – كما جاء فى الآية – الله حسيبهم وهو مولاهم وكافيهم، كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٣٦).

٣. **المقام الثالث:** مقام الربانيين المُربيِّن وهؤلاء هم الذين يجاهدون أنفسهم ويصارعون شيطانهم، ويهذِّبون أخلاقهم، ويرتقون بمهاراتهم وملكاتهم وقدراتهم، ثم يصْطَفون النجباء، وينتقون النبلاء، ويرتقون بهم إلى العلياء وهو معنى التزكية التى قال الله عنها: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)، وقد اختار النبى صلى الله عليه وسلم واصطفى العشرة المبشرين بالجنة والعبادلة والأخيار من الصحابة فأعدَّهم إعدادًا خاصًا فريدًا فصاروا علماء الأمة وأحبارها، وقادة الجيوش وربانها، والفاتحين المتحركين فى جنبات الأرض كلها.

وهكذا يجب أن ينتقل العلماء ذوو البصيرة بين طلب العلم ودعوة الناس من حولهم، ومجاهدة النفس واصطفاء ذوى النبوغ فى محاضن تربوية لصناعة القادة الربانيين والعلماء الصالحين المصلحين، فيجتمع لدينا نوعان من الناس:

١. النوع الأول: نخبة من الأئمة وهم العلماء والقادة الربانيين والحكام الصالحين، وقد أورد الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية قول الشاعر الأوْدى:

لا يصلح الناس فوضى لا سِراة ولا سِراة إذا جُهالهم سادوا

والسِراة هم القادة فلا يصلح أى تجمع دون هؤلاء السِراة.

٢. النوع الثانى: جماهير الأُمَّة من الأتباع الربانيين، فلو أن التمكين للإسلام يُكتفى فيه بالقائد الربانى الفذِّ لحدث التمكين فى مكة للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم ولهؤلاء الأخيار من السابقين إلى الإسلام من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وجعفر وحمزة وخالد بن سعيد وغيرهم، لكن الأغلبية الساحقة كانت كافرة أو معاندة فأُوذى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهاجر من هاجر إلى الحبشة وبقى الإسلام ضعيفًا مطاردًا حتى كثر الخير فى يثرب ودخل أكثر أهلها الإسلام، وأرسلوا قادة منهم ومندوبين عنهم، والتقت القيادة بهؤلاء الجمهرة فكان النصر والتمكين فى المدينة المنورة، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ ﴾ (الأعراف: ٨٦)، ويقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦).

إذن لا النخبة وحدها يمكن أن تصل إلى النصر مهما كانوا ربانيين، ولا الكثرة وحدها دون قادة ربانيين يمكن أن ينتصروا، فهذا قانون ربانى يوجب أن نعمل به لننال التمكين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال:٦٢).

وفى الشكل التالى توضيح لأهمية الكثرة فى المؤمنين والقادة الربانيين ليمنحنا الله النصر والتمكين، وهو قانون ربانى مستمر إلى يوم الدين:

وفى هذه الدراسة نعرض نموذجًا اختاره الله فى زمن عصيب حيث جاء المغول إلى أرض الإسلام سنة ٦٥٦هـ بقيادة هولاكو وقتلوا فى العراق وحدها ٢ مليون مسلم وعربى وأحدثوا فسادًا هائلاً وزحفوا إلى بلاد الشام وتهيئوا لغزو مصر، ولكن الله تعالى كان قد صنع على عينه من العلماء الربانيين والقادة المصلحين من أمثال العز بن عبد السلام، فنصح الأمراء، وصبر على فتنى

الإيذاء والإغواء، وتحرك بين أبناء مصر فأحبه الناس وساورا خلفه بعد أن همَّ بالخروج من القاهرة فاضطر الأمراء إلى النزول على حكم الله عز وجل درءًا للفتنة وحفاظًا على مكانتهم، وسنجد مثالاً من بين هؤلاء العلماء الذى جمعوا بين هذه المقامات الثلاثة وهو العز بن عبد السلام فكان بحقٍ فريدًا بين علماء عصره إن لم يكن علماء أمته، وسوف أقدم مواقف للعز بن عبد السلام تبيِّن إلى أى مدى كان الشيخ من الراسخين فى العلم والدعاة الربانيين المربين؛ فقيَّض الله على يده النصر المبين فى "عين جالوت" سنة ٦٨٥هـ، – وهو بحقٍ – نموذجٌ نحتاج إلى استحضاره فى واقعنا المعاصر.

المطلب الثانى: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى لأمَّة المسلمين

سوف أحاول هنا – رغم كثرة ما كُتب عن العز – أن أقتطف قليلاً من الأخبار، وبعضًا من الأزهار، وقبسًا من الأنوار التى أفاض الله بها على العز بن عبد السلام فى حضوره الاجتماعى ومشواره الإصلاحى، ومن ذلك ما يلى:

أولاً: اهتمامه بالإصلاح من خلال المساجد:

لقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بعد أول لحظة وصل فيها إلى مشارف المدينة ببناء مسجد قباء، ولما دخل إلى وسط المدينة بنى المسجد النبوى، ليكون منهاجًا ثابتًا لكل من أراد الإصلاح أن يبدأ مشواره من بيت الله عز وجل، وأن يستحث عموم المسلمين أن يكونوا عمَّارًا لا زُوارًا للمساجد، كما قال تعالى فى بدايات سورة التوبة بما يشير إلى أبجديات إعداد العدة: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ (التوبة: ١٨)، فمن المساجد تنطلق قوافل الإصلاح والتغيير والإحسان والتعمير، ولذا ذكر تلميذى النجيب – رحمه الله – والمؤرخ الأريب الأستاذ أحمد تمام فى ملخصاته عن الأئمة الأعلام فقال:

"اتجه العز إلى التدريس وإلقاء الدروس فى مساجد دمشق، وكان فى الشيخ حبٌ للدعابة وميْلٌ إلى إيراد المِلَح والنوادر يُلطِّف بها درسه وينشّط تلاميذه الذين أُعجبوا بطريقته، وبعلمه السيَّال، وأفكاره المتدفقة، وأسلوبه البارع، وسرعان ما طار صيت العز، وطَبَّقت شهرته الآفاق، وقصده الطلبة من كل مكان، ولما هاجر إلى مصر عَمِل بالمدرسة الصالحية، وانصرف إلى إلقاء الدروس فى المساجد، والتف الناس حوله يجدون فيه عالِمًا شجاعًا ومدرسًا بارعًا....وقد تولى الخطابة فى الجامع الأموى بدمشق سنة (٦٣٧ هـ – ١٢٣٩م)، وكان خطيبًا بارعًا، يملك أفئدة السامعين

بصوته المؤثر، وكلامه المتدفق، وإخلاصه العميق، ولم يكن يُؤْثر استخدام السجع المفرط كما كان يفعل أقرانه، ولا يدقُّ مثلهم بالسيف الخشبى على أعواد المنابر، ولا يرتدى السواد، وإنما كان فيه سلاسة ويُسر، يبتعد عن التكلف فى الكلام، ويصيب بحديثه الطيب شغاف القلوب، فيعمل فيها ما لا تعمله عشرات الدروس والمواعظ الخالية من الروح، الفقيرة من العاطفة"[٤٦].

وقد ظلَّ مرتبطًا بدوره فى المساجد حتى إنه لما عزل نفسه عن القضاء استمر خطيبًا فى المساجد لأن القضاء يأتى بتولية الحاكم، أما الدور المسجدى فإن النص فيه مباشرة من الله لعباده أجمعين.

ثانيًا: اهتمامه بالإصلاح من خلال المدارس التعليمية:

مما لا شك فيه أن من أكبر ميادين الالتصاق بالناس والتواصل معهم والتربية عن قرب والتأثير وفق منهجٍ متدرجٍ كل ذلك يتوفر بأعلى درجاته فى التعليم المدرسى، فلم يجلس العز بن عبد السلام فى مكتبه مؤلفًا ثم يرسل كتبه لمن شاء أن يقرأها من الطلاب، بل باشر بنفسه التواصل مع الطلاب، وفى هذا يقول المؤرخ الموسوعى المعاصر الشيخ د.على الصلابى: "قام العز بن عبد السلام بالتدريس فى مدارس دمشق ومساجدها، وهو أول عمل قام به العز – رحمه الله – وأول مدرسة عمل بها هى المدرسة العزيزية حيث كان للعز مجلس فيها يُدرِّس فيه العلوم الشرعية، كما كان يُدرِّس فيها الآمدى (ت ٦٣١هـ)، واستمر العز فى التدريس مع أستاذه الآمدى وبعده، كما دَرَّس فى المدرسة الشبلية، ثم تولى التدريس فى الزاوية الغزالية وهى مكان صغير، بجانب الجامع الأموى من جهة الغرب وسُمِّيت بذلك نسبة إلى الإمام الغزالى (ت ٥٠٥هـ)، كان يعتكف فيها، ثم استُعملت للعبادة والتدريس والأذكار، وتولى العز التدريس فيها بعد وفاة شيخها جمال الدين الدولعى سنة ٦٣٥هـ ..... وبعد هجرته إلى مصر ولاَّه السلطان التدريس فى الصالحية بالقاهرة وكانت مدرسة كبيرة خُصِّصَت لتدريس المذاهب الأربعة، فأُسند تدريس المذهب الشافعى، للإمام العز – رحمه الله – فبقى إلى أن توفى سنة ٦٦٠هـ ولم يكتفِ بالتدريس فيها، بل عقد حلقات العلم فى المساجد وقصده الطلاب من الآفاق، وتخرَّج عليه فى هذه الفترة معظم تلامذته الذين بزُّوا الأقران كابن دقيق العيد، والدمياطى، وغيرهم ممن سبق ذكرهم، وقد عرض عليه الملك الظاهر "بيبرس" بعد بنائه المدرسة الظاهرية أن يتولى أمر التدريس فيها إضافة إلى تدريسه فى الصالحية، فأبى وقال: إن معى تدريس الصالحية، فلا أُضيِّق على غيري"[٤٧]، لقد مارس العز بن عبد السلام التدريس فى دمشق ومصر وتمسك بهذا التدريس إلى أن مات، وتخرَّج على يديه نبغاء من خيرة العلماء منهم[٤٨]:

شيخ الإسلام ابن دقيق العيد (٦٢٥هـ - ٧٠٢هـ)، وكان أقرب تلاميذ العز فى الجرأة وقول الحق مهما كانت تبعاته وتضحياته.

الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القرافى (٦٢٦هـ - ٦٨٤هـ) وقد ألَّف "الذخيرة" و"الفروق" و"شرح التهذيب" وهو أكثر من وَرِث علم العز فى المقاصد، وكتاب القرافى "الفروق" من أروع وأدق ما كُتب فى تاريخنا الفقهى، وصار إمام المالكية فى زمانه.

الإمام أحمد بن فرح الأشبيلى (٦٢٥هـ - ٦٩٩هـ)، وقد قَدِم من أشبيلية ورحل إلى دمشق، فلما أُخرج الشيخ إلى القاهرة خرج وراءه وصار من أكبر علماء عصره فى الفقه والحديث معًا.

الإمام الحافظ عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسين بن شرف الدمياطى (٦١٣هـ - ٧٠٥هـ) وقد صار إمام الحديث فى عصره.

الإمام شهاب الدين أبو شامة (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ) وقد بلغ رتبة الاجتهاد فى المذهب الشافعى وكان بارعًا فى القراءات والنحو وعلم الأصول.

الإمام تاج الدين الفركاح (٦٢٤هـ - ٦٩٠هـ) وصار فقيه الشام فى عصره.

الإمام صدر الدين ابن بنت الأعز (٦٢٥هـ - ٦٨٠ هـ) وصار إمامًا فى الفقه والأصول وصار سيرة العز فى حسن القضاء والتزام العدل والإنكار على الظلمة والطغاة، وعزل نفسه من القضاء كما فعل شيخه.

هؤلاء بعض كبار العلماء الذين تخرجوا فى المدارس التى درَّس فيها إمامنا العز بن عبد السلام.

ثالثًا: دوره الاجتماعى من خلال الفُتيا:

هناك حلقة أخرى من حلقات التأثير الضرورية ولها أثر اجتماعى كبير وهى إفتاء الناس وإجابة أسئلتهم الخاصة وحل مشكلاتهم العامة والخاصة، وفى هذا يقول د.على الصلابى: "وسارت فتاويه مع الركبان وتحدث الناس بها وعملوا بها من الخلفاء والملوك والسلاطين إلى العامة والضعفاء والمساكين، وترك لنا تراثًا فى الفتاوى، سميت بعضها بالفتاوى المصرية والأخرى بالفتاوى الموصلية، وقد قال عنه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتوى، سائر الآفاق"[٤٩].

ومما زاد إقبال الناس عليه وثقتهم فيه اشتهاره بقوة الحجة الشرعية، وشجاعته النادرة، وخشيته من الله فى فتاويه سواء لعموم الأُمَّة أو أولى الأمر، فيُروى أنه أفتى مرة بشيء ثم تبين أنه أخطأ فنادى فى الأسواق فى مصر والقاهرة فيروى: "أنه من أفتاه فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ

وهذا يدل على شدة ورعه ومراقبته لله وخشيته منه، وحرصه الشديد أن لا يضل أحد من عباد الله بسببه، ولم يأبه لمن سيوصِمه بالجهل وعدم المعرفة، لأنه آثر الآخرة على الدنيا، وثواب الله على مدح الناس، لذلك أكرمه الله تعالى، وجعل له القبول فى قلوب عباده"[٥٠].

وفى الحق هناك مواقف إذا عُرفت عن عالِم فإنها تُكسبه ثقة العالَم، ويقصده الناس إما سائلين أو مستوثقين من صحة فتاوى السابقين، فيصير كما قال العرب: "المورد العذب كثير الزحام".

رابعًا: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى من خلال الجود والعطاء:

هناك أبجديات يجب أن تتوفر فى القادة المصلحين – مسلمين وغير مسلمين – وهى الشجاعة التى تدعو إلى المبادرة، والجود الذى يدعو إلى البذل والعطاء، والحق أن هناك صفات تتلازم ويَستدعى بعضها بعضًا، فالجُبْن فى الإنسان يلازمه البخل، والشجاعة يلازمها الجود والكرم، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو كل صباح ومساء بهذا الدعاء: " اللَّهُمَّ اِنِّى اَعُوذُ بِكَ مِنَ الهم والحزنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ "[٥١]، وقال الشاعر العربى أبو فراس الحمدانى:

إنـــــا إذا اشـــــتد الزمـــــان ونـــــاب خطـــــب وادلَهـــــم
ألفيـــــتَ حـــــول بيوتنـــــا عـــــدد الشـــــجاعة والكـــــرم
للقـــــا العـــــدا بـــــيض الســـــيوف وللنـــــدى حُمْـــــر الـــــنِعم
هـــــذا وهـــــذا دأبنـــــا يـــــودى دم ويـــــراق دم

فهم شجعان فى الحروب يقتلون الأعداء، وكرام مع الضيفان يذبحون لهم الأنعام، وقد ذكر د.الصلابى فى كتابه "سلسلة فقهاء النهوض": "كان العز كثير الصدقات، باسط اليد فيما يملك، يجود بماله ولو كان قليلاً، طمعًا فى الأجر والثواب، وادخار ذلك إلى يوم الدين، وقد حكى قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة – رحمه الله – أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغًا لها وقالت: اشتر لنا به بستانًا، فأخذ ذلك المصاغ، وباعه وتصدق بثمنه، فقالت: يا سيِّدى اشتريت لنا؟ قال: نعم بستانًا فى الجنة، إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له: جزاك الله خيرًا، فجددَّ سيرة أصحاب رسول الله والسلف الصالح"[٥٢].

خامسًا: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى من خلال السياسة:

قد يُؤْثر كثير من العلماء العمل المسجدى أو المدرسى أو الاجتماعى مبتعدًا عن التعرض لأى عمل سياسى راغبًا فى الأمان، عازفًا عن إغضاب السلطان، زاعمًا أن السياسة وحْلٌ ونجاسة،

ومكر وخساسة، وما صارت كذلك فى بعض صورها إلا من ابتعاد ذوى الفضل والعلم عن نصح ذوى السلطة والحكم، وهم أحوج الناس لمن ينصحهم بالمعروف، وها هنا سنجد ثمرة كبيرة من نشر روح الجهاد فى المسلمين إذا وُجدت موجباته، ثم النصح الأمين لحكام المسلمين أن يبادروا إلى تحمل مسؤولياتهم فى حماية أرض الإسلام، وأعراض المسلمين، وبيوت الله رب العالمين.

وإذا أردنا أن نقف على هذا الدور فى التوعية السياسية للأُمَّة فسنجد للعز دورًا بارزًا كما يقول د. الصلابى: "فى حرب التتار الذين داهموا البلاد الإسلامية ودمَّروا بغداد، وأبادوا المسلمين، وعَظُم خطرهم على العالم الإسلامى، وجَبُن الناس عن ملاقاتهم وحربهم، وخاف أهل مصر، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، عندها تدخل الشيخ – رحمه الله – وبثَّ الهمة فى نفوس الناس، وذكَّرهم بضرورة الجهاد، وعندما استشاره السلطان قطز بأمر المملكة وحرب التتار قال رحمه الله: أُخرجوا وأنا ضامن لكم على الله النصر"[٥٣].

وفى هذه الحلقة من حلقات الإصلاح نجد العز بن عبد السلام يعمل مع جماهير المسلمين وسيف الدين قطز ليَرْدِم الفجوة بين الحكام والمحكومين، ويستجمع القوة فى مقاومة الغازين من التتار الظالمين، وهو درس عملى لكل إمام فى مجتمعه.

ولعل هذا يمهد للدور المُوَّجه بشكل خاص إلى ولاة المسلمين وحكامهم.

المطلب الثالث: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى لأئمة المسلمين

أولاً: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى مع والى دمشق فى تحالفه مع الصليبيين ضد أخيه:

"كانت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية وحاضرة الدنيا، لكنها سقطت بأيدى التتار سنة ٦٥٦هـ، ودُمِّرت بغداد نتيجة ضعف الخليفة وتآمر الوزير ابن العلقمى، وأُلقيت المخطوطات والكتب فى نهر دجلة حتى اسودَّ ماؤه، وانبعثت جيوش "هولاكو" كالجراد، ولم يبقَ من ديار الإسلام إلا مصر"[٥٤].

يذكر الدكتور الموهوب المؤرخ المربى راغب السرجانى فى كتابه المتميز "قصة التتار": "وقد كان العز بن عبد السلام فى هذه الفترة يترعرع فى دمشق إلى أن تولّى الصالح إسماعيل الأيوبى أمر دمشق وهو أخو الصالح أيوب الذى كان حاكمًا لمصر، الذى عُرف بصلاحه وتقواه، لكن الصالح إسماعيل حاكم دمشق كان على شاكلة أخرى، فقد كان خائنًا لدينه وشعبه، فتحالف مع الصليبيين لحرب أخيه نجم الدين أيوب فى مصر، وكان من شروط تحالفه مع الصليبيين أن يعطى لهم مدينتى صيدا والشقيف، وأن يسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، وأن يخرج معهم فى جيش واحد لغزو مصر، وبالطبع ثار العالم الجليل العز بن عبد السلام، ووقف يخطب على المنابر يُنكر

ذلك بشدة على الصالح إسماعيل، ويعلن فى صراحة ووضوح أن الصالح إسماعيل لا يملك المدن الإسلامية ملكًا شخصيًا حتى يتنازل عنها للصليبيين، كما أنه لا يجوز بيع السلاح للصليبيين، وخاصة أن المسلمين على يقين أن الصليبيين لا يشترون السلاح إلا لضرب إخوانهم المسلمين، وهكذا قال سلطان العلماء كلمة الحق عند السلطان الجائر الصالح إسماعيل، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن عزله عن منصبه فى القضاء، ومنعه من الخطابة، ثم أمر باعتقاله وحبسه، وبقى العالم الجليل مدة فى السجن، ثم أُخرج من سجنه ولكنه مُنع من الكلام والتدريس والخطابة، فرحل الإمام الجليل من دمشق إلى بيت المقدس"[٥٥].

وهنا نجد نموذجًا عمليًا لهذا العالِم الربانى الذى جمع بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، فمن كان ضعيفًا فى الحجة الشرعية يُلْبس على الناس دينهم، ومن خفَّت عنده الخشية القلبية يُدلِّس على الناس دينهم؛ فتتغير عنده الأحكام ليس عملاً بالمصالح والمفاسد الشرعية، وإنما تقربًا إلى أصحاب السلطة السياسية، وهذا ما جعل كثيرًا من العلماء تضيع هيبتهم عندما يعلم الله عز وجل من قلوبهم أنهم يخشون الناس أشد من خشيتهم لرب الناس، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ (النساء:٧٧)، وهذا صنف وُجد قديمًا ولا يزال موجودًا حتى الآن، لكن العز بن عبد السلام لما رأى تحالف والى دمشق الصالح إسماعيل الأيوبى مع الصليبيين ضد أخيه الصالح أيوب حاكم مصر، وقف الشيخ بقوة الواثق فى الله يُنكر موالاة الكافرين ضد المؤمنين، مع ما يطمعون فيه من أراضى المسلمين، وما ينتهكونه من أعراضِهم، فأنكر ذلك أشد الإنكار وظل ثابتًا على فتواه رغم سجنه، ولما أُخرج من السجن لم يرتبط بالأرض رغم شدة الحنين إليها، وإنما ارتبط بإظهار الحق لتعلقه بالحق سبحانه وتعالى، وعملاً بالآية: ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾ (النساء:٩٧)، وكأنى بالإمام وهو يخرج من دمشق إلى بيت المقدس يردد قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ (النساء:٧٥)، وكأنى به يتأسى بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم لمَّا أُوذى بمكة وضاقت برسالته فتركها وهى أحب بلاد الله إليه وأحب بلاد الله إلى الله، تركها لأجل دعوة الله فكان الخير كله، كما تحقق لاحقًا على يد سلطان العلماء العز بن عبد

السلام.

ثانيًا: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى مع والى دمشق فى تحالفه مع الصليبيين فى القدس:

اضطر العز بن عبد السلام أن يترك أرضه وبلده وموطن رأسه دمشق إلى بيت المقدس عندما وجد الظلم فاشيًا من الصالح إسماعيل والتحالف مع الصليبيين طاغيًا ضد أخيه حاكم مصر الصالح أيوب، فذهب إلى أرض أخرى يلتمس فيها حرية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم رجال الأمة ونسائها، لكنه كما يقول الدكتور راغب السرجانى: "فوجئ بالصالح إسماعيل يأتى إلى بيت المقدس ومعه ملوك الصليبيين وجيوشهم وهم يقصدون مصر لاحتلالها، وأرسل الصالح إسماعيل أحد أتباعه إلى الشيخ العز بن عبد السلام – رحمه الله – وكان متلطفًا له غاية التلطف، بل ووعده بالعودة إلى كل مناصبه بشرط أن يترضى الصالح إسماعيل، ويعتذر له، وبشرط ألا يتكلم فى أمور السياسة، وإلا اعتقله. وذهب رسول الصالح إسماعيل إلى العز بن عبد السلام – رحمه الله – وقال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتُقبل يده لا غير!. فردَّ عليه العز بن عبد السلام – رحمه الله – فى كبرياء وعزة فقال: "والله يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبِّل يدى، فضلاً أن أقبل يده، يا قوم: أنتم فى وادٍّ، وأنا فى وادٍّ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به!".

وكان رد الصالح إسماعيل متوقعًا، فقد أمر باعتقال الشيخ العز فى بيت المقدس، ووضعه فى خيمة مجاورة لخيمته، وكان الشيخ عز الدين – رحمه الله – يقرأ القرآن فى خيمته، والسلطان الصالح إسماعيل يسمعه، وفى ذات يوم كان الصالح إسماعيل يتحدث مع ملوك الصليبيين فى خيمته والشيخ يقرأ القرآن، فقال الصالح إسماعيل لملوك الصليبيين وهو يحاول استرضاءهم: "تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم، قال: هذا أكبر علماء المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمى حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم"، يقول الصالح إسماعيل هذا الكلام ليسترضى ملوك النصارى، فقال له ملوك النصارى وقد سقط تمامًا من أعينهم: "لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها!".

وحُبس الشيخ العز بن عبد السلام فى بيت المقدس إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخلَّص بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٣هـ، وأُخرج الشيخ العز بن عبد السلام من السجن وذهب إلى مصر"[٥٦].

وها نحن نرى صورة تتكرر فى واقعنا المعاصر حيث تتحالف بعض الأنظمة العربية مع

الصليبيين والصهاينة على إخوانهم العرب والمسلمين، فها هو الصالح إسماعيل يدخُل إلى بيت المقدس على خيل صليبية لكى يزحف إلى مصر ليواجه أخاه الصالح أيوب، وكان لابد أن يُسكت صوت الحق صوت العز بن عبد السلام الذى ما برح يبيِّن حرمة هذا الحِلف بين المنافقين والكافرين، بين الظالمين والطغاة، وحاول هذا الحاكم أن يستميل العز بن عبد السلام ليفتح لنفسه الطريق أمام بغْيه وتحالفه مع أعداء الله؛ فأرسل للعز رسولاً يساوم الشيخ أن يسكت عن الحق وأن يسترضى الأمير وأن يُقبِّل يديه، لكن الأمير الفاسد فوجئ بجبل شامخ من صاحب علم راسخ، ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ (الأحزاب: ٣٩)، فيركب متن العزة، ويُحلِّق فى أفق الكرامة، ويرسل من سماء الاستعلاء على الباطل رسالته القوية: "والله يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبِّل يدى، فضلاً أن أقبل يده،....."، وهى كلمة أراد أن يربى بها علماء الأمة وينزع بها الخوف والفزع، والجُبْن والهلع من قلوب ذوى العلم المرتجفين المتسولين على أبواب السلاطين، ولم يبالِ العز بإعادة سجنه بأرض القدس، كما يُسجن اليوم فى أرض فلسطين كثير من الأحرار الأبرار الأخيار، ﴿ **وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ** ﴾ (البروج:٨)، وها هو التاريخ يعيد نفسه لكن أملاً كبيرًا يحدونا اليوم عندما نجد أن ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب قد أعد عُدته وغزا أرض فلسطين وخلَّص بيت المقدس من الصليبيين ومن أخيه الذى حالفهم على البغى والعدوان، وجاء الفَرَجُ إلى العز بن عبد السلام وخرج من السجن وذهب مع الحاكم إلى مصر.

ثالثًا: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى مع والى مصر وبيع الأمراء:

"استُقبل الإمام العز فى مصر أحسن استقبال، وقُرِّب جدًا من السلطان الصالح أيوب – رحمه الله – وأعطاه الخطابة فى مسجد عمرو بن العاص، وولاه القضاء.

ومن مواقفه الشهيرة والتى اصطدم فيها مع الصالح أيوب نفسه، أنه لما عاش فى مصر اكتشف أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى كلها للمماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك، ولذلك فهم فى حكم الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار، فأصدر مباشرة فتواه بعدم جواز ولايتهم لأنهم من العبيد، واشتعلت مصر بغضب الأمراء الذين يتحكمون فى كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك، وجاءوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلى عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض كل هذا مع إنه قد جاء مصر بعد اضطهاد شديد فى دمشق، ولكنه لا يجد فى حياته بديلاً عن كلمة الحق، فرفع الأمر

إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ، ورفضه، وقال إن هذا الأمر ليس من الشئون المسموح بالكلام فيها، فهنا وجد الشيخ العز بن عبد السلام أن كلامه لا يُسمع، فخلع نفسه من منصبه فى القضاء، فهو لا يرضى أن يكون "صورة مُفتٍ"، وهو يعلم أن الله عز وجل سائله عن سكوته كما سيسأله عن كلامه، ومن هنا قرر العالِم الورع أن يعزل نفسه من المنصب الرفيع، مضحيًا بالوضع الاجتماعى وبالمال وبالأمان بل وبكل الدنيا.

وركب الشيخ العز بن عبد السلام حماره، وأخذ أهله على حمار آخر، وببساطة قرر الخروج من القاهرة بالكلية، والاتجاه إلى إحدى القرى لينعزل فيها إذا كان لا يُسمع لفتواه، ولكن شعب مصر المقدّر لقيمة العلماء – آنئذ – رفض ذلك الأمر، فماذا حدث؟.

لقد خرج خلف الشيخ العالِم الآلاف من علماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خرج النساء والصبيان خلف الشيخ تأييدًا له، وإنكارًا على مخالفيه.

ووصلت الأخبار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فأسرع بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام واسترضاه، فما قَبِل إلا أن تنفذ فتواه، وقال له: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلابد أن يباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذى يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين فلابد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين، ووافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العز بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء حتى لا يحدث نوع من التلاعب، وبدأ يعرض الأمراء واحدًا بعد الآخر فى مزاد، ويغالى فى ثمنهم، ودخل الشعب فى المزاد، حتى إذا ارتفع السعر جدًا، دفعه الملك الصالح نجم الدين أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعتقه بعد ذلك، ووضع المال فى بيت مال المسلمين، وهكذا بِيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يُعرف "ببائع الأمراء"!"[٥٧].

هكذا قدَّر الله الفرج بعد سنين للعز بن عبد السلام ووجد من يقدِّره من الحكام، وهو الملك الصالح أيوب، فولاه الإفتاء والقضاء والخطابة فى مسجد عمرو بن العاص وظل يبلغ رسالته، وينشر علمه، ويفتى بالحق، ويقضى بالعدل، حتى كان هذا الموقف الفريد فى تاريخ الأمة، وصار يُعنوَن له ويُلَّقب بأنه "بائع الأمراء" حيث علم أن كبار المسئولين بالدولة كانوا من العبيد والرقيق واشتراهم نجم الدين أيوب وربَّاهم على يديه ووثق فيهم بعدما رأى الخيانة من أخيه وغيره فوَّلاهم المناصب الكبرى، وهنا ينهض العز بن عبد السلام فى وجه الملك الصالح نفسه رغم إحسانه إليه، وإخراجه من السجن فى بيت المقدس، ودعوته إلى مصر، وإعطائه هيبته ومكانته التى تليق به، لكن هذا كله لا يجعل أبدًا من العالم عبدًا للحاكم، فصدع بالحق الذى أغضب الملك، فخلع الشيخ

نفسه قبل أن يُخلع وحمل متاعه إلى أرض أخرى، وتحمل أهل مصر رجالاً ونساءً، شيبًا وشبابًا مسؤوليتهم فى حماية أهل العلم فخرجوا وراءه وساروا خلفه؛ مما هدَّد مُلك الحاكم، وكان – بحقٍ – رجلاً يستحق التقدير إذ وازن الأمور وراجع نفسه، فأسرع بنفسه خلف الشيخ يسترضيه، ونزل على حكم الله، وتولى الشيخ بنفسه بيع الأمراء حتى لا يُحتال على حكم الله، واشترى الملك الصالح بأغلى ثمن هؤلاء العبيد وأعتقهم ووضع المال فى بيت مال المسلمين، وفاض الخير على المسلمين أجمعين بوقفة العالِم لله وتحرك العوام مع العالِم، ونزول الحاكم على أمر الله، وليس كما يحدث الآن من صور التبرع والتطوع من العلماء فى تسويغ ما تفعله الأنظمة رغم فتاويهم السابقة بعكس ما كانوا يفتون به!.

رابعًا: العز بن عبد السلام ودوره الإصلاحى فى تحريم الضرائب إلا بشروط:

أورد ابن تغرى الأتابكى فى "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" ما يلى:

"جاءت فتوى عز الدين بن عبد السلام عندما سُئل عن حكم أخذ الأموال لتجهيز الجيوش، وذلك أن الأراجيف قد عظمت بتحريك التتار نحو بلاد الشام، وقطعوا الفرات وهجموا على حلب، فطلب الملك الناصر النجدة على قتال التتار، فنزل رسوله فى مصر وجمع له القضاة والفقهاء لمشاورتهم فى ذلك، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر الدين السنجاوى قاضى الديار المصرية وأفاضوا فى الحديث أمام الملك المنصور – حاكم مصر آنذاك – فكان الاعتماد على ما يقوله عز الدين بن عبد السلام وخلاصته: "إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالَم (أى العالم الإسلامى كله) قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا" وانفضَّ المجلس على ذلك، ولم يتكلم الملك بكلمة فى المجلس؛ لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنه، فلهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز؛ حتى يقوم بهذا الأمر المهم، وتولى بعدها السلطان قطز وخلع الملك المنصور"[٥٨].

وحدثت واقعة أخرى مع العز بن عبد السلام تفيد فى اجتهاده فى أخذ الأموال من الرعية، حيث داهم التتار بلاد الإسلام وأراد السلطان فى مصر أن يقترض من التجار لقلة المال فى بيت المال، فاستشار الشيخ عز الدين فقال: "اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، فإذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلى الحرام وضربته سكة ونقدًا، وفرقته فى الجيش، ولم يقُم بكفايتهم، ذلك الوقت أطلب القرض، أما قبل ذلك فلا"، فأحضر السلطان والعسكر

كلهم ما عندهم من ذلك بين يدى الشيخ، وكان الشيخ له عندهم عظمة وهيبة، بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا أمره فانتصروا"[٥٩].

هذه أعظم تذكرة يجب أن يسعى إليها الأمراء والعلماء معًا حيث إن النصر فى عين جالوت وما بعدها قد أتى بعد فضل الله عز وجل من قوة العلماء فى قول الحق لا يخشون فيه لومة لائم ونزول الأمراء على حكم الله، حيث أرادوا فرض الضرائب والاقتراض لنفقات الحرب ضد جحافل التتار لكن العز بن عبد السلام أبى إلا أن تُباع كل وسائل الترف والكماليات فى قصور الأمراء، بل يقتصر كل قائد أو جندى على مركوبه وسلاحه، وأن يعيشوا فى مستوى عامة الناس، ولما تردَّد الملك المنصور خلعه الناس وولوا السلطان قطز فنزل على الحكم الشرعى الذى أفتى به العز والتحمت السُلطة مع العلم وتوافق الأمراء مع العلماء، وتم تجييش الجيوش وإعداد العدة حتى أتم الله نصره للمسلمين وهزم التتار لأول مرة على يد هؤلاء المجاهدين الصادقين.

وأقول هنا: إن تحرير فلسطين وقهر الصهاينة المعتدين وإخراج المحتلين من أراضى المسلمين مرهون بالتحام سُلطة الأمراء مع سُلطة العلماء بشرط أن يكون ذلك نزولاً على حكم الله وليس تسويغًا لما يفعله من يحكمون عباد الله!.

الخلاصة

١. نشأ العز بن عبد السلام فى دمشق فقيرا، لكنه اجتهد فى طلب العلم حتى اغتنى بربه عن غيره، وصار رمزًا ونموذجًا للعالِم الذى يجمع بين الحجة الشرعية والخشية القلبية، يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم، وإن سُجن مرات لكنه بقى صلبًا فى الحق حتى لقى الله.

٢. كتاب "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال" حُققَ أكثر من مرة من أ.إياد خالد الطباع، و أ.أحمد فريد المزايدى، وأ.إحسان عبد المنان، وهو فريد فى تراثنا الإسلامى حيث يجمع بين علم المقاصد والفقه والإيمانيات والأخلاق بأرقى درجات الامتزاج بينها.

٣. عنوان الكتاب مرتبط بمفهوم الشجرة فى القرآن والسُنة، فالقلب هو الأرض وجذر الشجرة هو معرفة الله، وساقها وفرعها هو معرفة صفات الله تعالى، أما الأوراق والأزهار والثمار فهى الأحوال والأقوال والأعمال.

٤. من خصائص علم المقاصد فى شجرة المعارف التضلُّع بالقرآن والتشبُّع بالهدى النبوى، حيث نجد فى كتابه الذى لم يزد عن ٤٠٠ صفحة مع التحقيق والفهارس لكنه أورد أكثر من ١٤٠٠ آية، أما الأحاديث النبوية فقد بلغ عددها أكثر من ٦٥٠ حديثا، فسبق إمام مذهبه الشافعى فى كتابه الرسالة، وخالف أستاذه الآمدى فى كتابه الإحكام، وأساتذة الآمدى مثل الغزالى وغيره، بل خالف

منهج علماء عصره الذين امتلأت كتبهم بالسبر والتقسيم المنطقى مع قلة أو ندرة النص القرآنى أو الحديث النبوى، بل لم يأتِ إمام بعده – على حد علمى – فكان ثريا فى الاستدلال بالآيات والأحاديث مثل العز، مما جعل كلماته كأنها العقود الثرية باللآليء والدرر.

٥. توسع العز بن عبد السلام فى ميدان المقاصد فجعل ميدانه العقائد والأخلاق والعبادات وليس فقط المعاملات كما شاع بين كثير من العلماء أن الأصل فى العبادات الوقوف عند الألفاظ والمبانى، وفى المعاملات الوصول إلى المقاصد والمعانى، وفى كتابه روائع من ثمرات الاستنباط فى علم المقاصد فى العقيدة والأخلاق إضافة إلى التشريع بنوعيه العبادات والمعاملات.

٦. لقد مزج العز بن عبد السلام فى ثوب قشيب الإحسان والورع بمسائل الفقه الإسلامى، فأدخل الإحسان فى كل شيء، فى الأحكام الشرعية والمكارم الأخلاقية والعقيدة الإسلامية، وقد جاءت أكثر أبواب الكتاب ومسائله عن الإحسان فى كل جوانب الحياة حتى الإحسان إلى الجهال والكفار بالتوسل إلى نقلهم من الكفر إلى الإيمان ومن أسباب السخط إلى أسباب الرضوان.

٧. هناك مقامات ثلاثة لا غنى عنها معًا فى العلماء خاصة وهى: مقام الراسخين فى العلم والدعاة والمربين لأداء دور قيادى إصلاحى فى أى عصر، وهى جزء من المنهجية الإسلامية فى الإصلاح والتغيير، فإذا توفر فى العالِم ذلك فإنه يجب أن يتحرك بالنصيحة والإصلاح للأئمة والنخبة، والعامة والخاصة، والقادة والاتباع، فإن الله لم يمنح نصره لنبيه فى مكة مع قوة إيمانه هو وأصحابه لأن شرط الكثرة لم يتوفر، فلما وُجدت الكثرة الربانية فى يثرب والقادة الربانيين من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه تحققت الدولة والقوة والعزة والتمكين والنصر المبين بفضل الله رب العالمين.

٨. يعدُّ العز بن عبد السلام نموذجًا فى الرسوخ العلمى، والتحرك الدعوى، والعمق التربوى، والإصلاح الاجتماعى والقيادى، فتحرك لإصلاح العامة من خلال دوره فى المساجد إمامة وخطابة ودروسًا ومعايشة مع المصلين بالإضافة إلى دوره فى المدارس الشرعية تعليمًا وتربية وانتقاء للنوابغ حتى خرَّج كوكبة من العلماء تقترب منه فى العلم والقوة فى الإنكار على الأمراء، والقوة على الابتكار والإبداع فى العلوم الشرعية مثل الإمام ابن دقيق العيد والإمام القرافى وغيرهم من العلماء، كما التصق بالناس من خلال الفُتيا فى حياتهم الخاصة ومشاكلهم العامة، وسارت فتاويه مع الركبان وتحدث الناس بها وعُمل بها من الخلفاء والملوك والسلاطين إلى العامة والضعفاء والمساكين، كما كان يتصف بالجود والكرم والبذل والعطاء للمحتاجين والفقراء والمساكين فأحبه الناس من حوله، كما أنه كان يساهم فى التوعية العامة وتوجيه الرأى العام على خطورة التتار،

فأحيى الجهاد فى عقول ووجدان الأمة.

٩. لقد أدى الشيخ دورًا رائدًا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأئمة المسلمين، فحُورب من والى دمشق الصالح إسماعيل الأيوبى لأنه أفتى بحرمة تحالفه مع الصليبيين ضد أخيه الملك الصالح أيوب، وصدع بالحق بين الناس حتى سجنه والى دمشق، ولما أُخرج ومُنع من الكلام والتدريس رحل لينشر علمه ودعوته إلى بيت المقدس تاركًا وطنه لمصلحة دعوته، ثم استمر يقول الحق فى بيت المقدس حتى سُجن مرة أخرى وطُلب منه أن يسترضى الوالى فرفض فى عزة وإباء، وبقى فى السجن حتى حُرِّر منه وذهب إلى مصر ليتولى القضاء والإفتاء والخطابة متعاونًا مع السُلطة فى الحق، لكنه اضطر أن يصدع بالحق فى وجوب بيع الأمراء حيث كانوا رقيقًا، وتولى بيعهم بنفسه، ثم أفتى بعدم جواز الاقتراض أو فرض الضرائب من السُلطة على الناس حتى تباع كل وسائل الترف لدى السُلطة ويعيش أهل الحكم فى مستوى الناس، ويُعدُّ التقاء العز مع السلطة فى مصر سببًا رئيسيًا – بعد فضل الله – فى جمع الكلمة وتجييش الجيوش وهزيمة التتار لأول مرة بعد احتلالهم للعراق وبلاد الشام ومحاولتهم احتلال مصر، فهُزموا هزيمة منكرة تدعونا إلى ردم الفجوة بين الأمراء والعلماء بشرط أن يبقى الحق حاكمًا على الجميع.

الهوامش:

(١) كتب كثيرون من المعاصرين فى فقه المقاصد بصفة عامة، ومن أهم ما جمع فى الموضوع برمته كتاب الدليل الإرشادى إلى مقاصد الشريعة الإسلامية للأستاذ الدكتور محمد كمال إمام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، مركز دراسات مقاصد الشريعة، وقد وصل الآن إلى مجلدات ثلاث من الحجم الكبير جدا.

(٢) انظر موسوعة فقه عمر بن الخطاب للدكتور محمد رواس قلعه جى، مكتبة الفلاح بالكويت، ط الأولى ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٣) انظر منهج عمر بن الخطاب دراسة مستوعبة لفقه عمر بن الخطاب وتنظيماته لأستاذنا الدكتور محمد بلتاجى حسن، دار الشباب ١٩٩٨م.

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيميه ٤/ ٤٦٥.

(٥) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٥/١٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى، وقد ترجم له فى قرابة خمسين صفحة، ٢٠٩/٨-٢٥٦، رقم: (١١٨٣)، وراجع مزيدا من التعريفات عنه فى: كشف الظنون لحاجى خليفة، وكتاب "العز بن عبد السلام" للدكتور محمد الزحيلى، و"قصة التتار" للدكتور راغب السرجانى، و"أئمة الفقه التسعة" لعبد الرحمن الشرقاوى.

(٦) "العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك" الدكتور محمد الزحيلى، دار القلم بمصر، ط الأولى ١٤١٢ هـ، ص ١٤٤.

(٧) هذه هى النسخة التى اعتمد عليها الدكتور الزحيلى فيما كتبه عن الكتاب، ص٢٩٩-٣١١.

(٨) شجرة المعارف، ص٢٣.

(٩) شجرة المعارف، ص٢٣-٢٤.

(١٠) شجرة المعارف، ص٢٣.

(١١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قَوْلِهِ (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى اُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)، رقم: 4744.

(١٢) صحيح البخارى، كتاب التفسير، باب قَوْلِهِ: (وظل ممدود)، رقم: 4930.

(١٣) التضلع فى الأصل أن يشرب المسلم ماء زمزم حتى يسرى الماء فى كل ذرات الإنسان، ومن ذلك ما أورده الإمام السخاوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "علامة ما بيننا وبين المنافقين أن تدلوا دلوا من ماء زمزم فتضلع منه ما استطاع منافق قط يتضلع منها".

(١٤) شجرة المعارف، ص٢٦-٢٧.

(١٥) شجرة المعارف، ص ٣٤٥-٣٥٠.

(١٦) شجرة المعارف، ص١٩٦.

(١٧) شجرة المعارف، ص١٩٢.

(١٨) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بشقٍّ تَمْرَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ

النَّارِ، من حديث جرير بن عبد الله، رقم: 2398.

(١٩) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ، من حديث أبى هريرة،رقم: 2447.

(٢٠) الموافقات: ٢/٥١٣-٥١٧، نسخة مشهور بن حسن آل سلمان، وفى نسخة دار الكتب العلمية: ٢/٢٢٨- ٢٣٢.

(٢١) شجرة المعارف، ص١٧.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) نفسه.

(٢٤) نفسه.

(٢٥) شجرة المعارف، ص٤٠.

(٢٦) شجرة المعارف، ص٨٣.

(٢٧) شجرة المعارف، ص١٢١.

(٢٨) جمع كوة وهى الطاقة أو النافذة التى ينظر منها الإنسان إلى مكان آخر، قال الشاعر هاشم رفاعى يصف السجَّان ينظر إلى المسجون المظلوم:

من كوة بالباب يرقب صيده ويعود فى أمن إلى الدوران

(٢٩) شجرة المعارف، ص٢٥.

(٣٠) شجرة المعارف، ص١٢٦.

(٣١) شجرة المعارف، ص١٢٨.

(٣٢) شجرة المعارف، ص٢٥.

(٣٣) نفسه.

(٣٤) شجرة المعارف، ص٣٥.

(٣٥) شجرة المعارف، ص٤٩.

(٣٦) شجرة المعارف، ص٣٥٣.

(٣٧) شجرة المعارف، ص٣٥٧.

(٣٨) شجرة المعارف، ص١٤٣.

(٣٩) شجرة المعارف، ص١٦٧.

(٤٠) شجرة المعارف، ص١٧٢.

(٤١) شجرة المعارف، ص١٨٠.

(٤٢) شجرة المعارف، ص٣٤٥.

(٤٣) شجرة المعارف، ص٣٧٦.

(٤٤) صحيح البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِى إِسْرَائِيل، رقم: 3499.

(٤٥) الترغيب والترهيب للمنذرى، رقم: ١/٩٧، [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما].

(٤٦) موقع إسلام أونلاين: "العز بن عبد السلام.. بائع الملوك"، أ.أحمد تمام.
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout&cid=1178724231109

(٤٧) "سلسلة فقهاء النهوض: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء وبائع الأمراء"، د.على الصَّلاَّبى، ص٤٦، ومراجعه: فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ص ١٣٢، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣)، والبداية والنهاية (٤٤٢/١٧)، وقد اقتبستُ بعض عباراته التى وثَّقها من فتاوى شيخ الإسلام عز الدين، وطبقات الشافعية الكبرى، ومقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام، وقد آثرت النقل عنه لأنه بحق يكتب بحرفية المؤرخ، ودقة الباحث، ووعى الداعية، وروح المربى.

(٤٨) سلسلة فقهاء النهوض: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء وبائع الأمراء"، د.على الصَّلاَّبى، ص٤٦، ومراجعه: فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ص ١٣٢، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣)، والبداية والنهاية (٤٤٢/١٧)، ص١٢-٢٠.

(٤٩) "سلسلة فقهاء النهوض: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء وبائع الأمراء"، د.على الصَّلاَّبى، ص٤٨، ومراجعه: البداية والنهاية (٤٤٢/١٧).

(٥٠) نفسه.

(٥١) صحيح البخارى، كتاب الدعوات، باب الاِسْتِعَاذَةِ مِنَ الْجُبْنِ وَالْكَسَلِ، رقم: ٦٤٤٣.

(٥٢) "سلسلة فقهاء النهوض: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء وبائع الأمراء"، د.على الصَّلاَّبى، ص٥٧، ومراجعه: طبقات الشافعية الكبرى (٢١٤/٨)، العز بن عبد السلام للزحيلى ص ١٠٨.

(٥٣) "سلسلة فقهاء النهوض: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء وبائع الأمراء"، د.على الصَّلاَّبى، ص٥٥، ومراجعه: السلوك (٤٢٨/١) النجوم الزاهرة (٧٢/٧).

(٥٤) رابطة أدباء الشام: http://www.moslimonline.com/ShowNews.php?id=947

(٥٥) من كتاب "قصة التتار: من البداية إلى عين جالوت"، د.راغب السرجانى، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٢٦١-٢٦٣.

(٥٦) من كتاب "قصة التتار: من البداية إلى عين جالوت "، د.راغب السرجانى، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٢٦١-٢٦٣.

(٥٧) من كتاب "قصة التتار: من البداية إلى عين جالوت"، د. راغب السرجانى، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٦٣ – ٢٦٥.

(٥٨) "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" لابن تغرى الأتابكى (٧٣،٧٢/٧) وانظر نفس القصة فى البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٢١٥، ٢١٦).

(٥٩) طبقات المفسرين للداودى (٣١٦/١)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى (٢١٥/٨).